

التفسير الوسيط

للقرآن الكريم

تأليف

لجنة من العلماء

بإشراف

مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر

المجلد الثالث

الحزب الخامس والأربعون

الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م



التفسير الوسيط

للقرآن الكريم

تأليف

لجنة من العلماء

بإشراف

مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر

المجلد الثالث

الحزب الخامس والأربعون

الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م

القاهرة

الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

١٩٨٨

* (وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴿٢٨﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ ﴿٢٩﴾)

المفـردات :

(صَيْحَةً) : صوتا قويا .

(خَامِدُونَ) : ميتون خامدون كما تخمد النار .

التفسـير

٢٨ - (وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِ مِن بَعْدِهِ مِن جُندٍ مِّنَ السَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ) :

ذكر الله - سبحانه وتعالى - فى الآيات السابقة أنه جاء رجل من أقصى المدينة (مدينة أنطاكية على ماذكره كثير من المفسرين) - جاء - يسعى ليحث قومه على اتباع المرسلين الذين لايطلبون أجرا على إرشادهم ونصحهم وهم مهتدون ، فلما نصحهم ، وثبوا عليه وثبة رجل واحد فقتلوه فقيل له - من عند الله جزاءً على إيمانه ، وحسن دعوته إلى الله - : ادخل الجنة فدخلها ، فلما شاهد ماشاهد من إكرام الله له قال : «يَالَيْتَ قَوْمِى يعْلَمُونَ*بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ الْمُكْرَمِينَ» ليؤمنوا كما آمنت ، وهكذا : نصح هذا الرجل المؤمن قومه فى حياته بقوله : «اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ» وتمنى أن يعرفوا حُسْنَ جزائه بعد مماته ليؤمنوا وذلك بقوله : (يَالَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ*بِمَا غَفَرَلِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ الْمُكْرَمِينَ) فما أعظم هذا الرجل ، فقد كان حريصا على هداية قومه حيا وميتا .

وفى قوله تعالى : « وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِ مِن بَعْدِهِ مِن جُندٍ مِّنَ السَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ » : يخبر الله – تعالى – أنه انتقم من قومه بعد قتلهم إيّاه ، غضبا منه عليهم ، لأنهم كذّبوا رسله وقتلوا وليّه ، ويذكر – عز وجل – أنه ما أنزل على قومه ملائكة لإهلاكهم ، بل كان الأمر أيسر من ذلك ، ومعنى قوله تعالى : (وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ) أى : وما ينبغى فى حكمتنا أن ننزل فى إهلاك قوم هذا الرجل – الذى يسميه كثير من المفسرين حبيبا – ماينبغى فى حكمتنا أن ننزل جندا من السماء ، لأن الله – تعالى – أجرى هلاك كل قوم على بعض الوجوه دون بعض بناءً على ما اقتضته الحكمة ، ألا ترى إلى قوله – تعالى – : « فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِباً ، وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ ، وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ ، وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا [1] » وكأنه أشار بقوله : « وَمَآ أَنزَلْنَا – وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ » إلى أن إنزال الجنود من السماء من عظائم الأُمور ولايليق إنزالها إلا من أجلك يامحمد ، كما حدث فى غزوتى بدر والخندق انتصارا لك من قومك ، وماكان ينبغى أن نفعل ذلك من أجل غيرك .

٢٩ – (إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ) :

أى : ماكان إهلاكهم وعقوبتهم إلا بصيحة واحدة أرسلناها عليهم فإذا هم ساكنون سكون الميت كالنار الخامدة ، وفى ذلك تحقير لهم وتقليل لشأنهم ، روى أن الله – تعالى – بعث عليهم جبريل فصاح بهم صيحة فماتوا ، ذكره الآلوسى وغيره ، وفى التعبير بإذا الفجائية فى قوله – تعالى – : « فَإِذَاهُمْ خَامِدُونَ » مايشير إلى سرعة هلاكهم بحيث كان مع الصيحة .

ولقد ذكر بعض المفسرين أن هذه القرية التى أهلك الله أهلها (أنطاكية) كما تقدم ذكره ، ويرى ابن كثير أنّ أهل (أنطاكية) [2] كانوا أول أهل بلد آمن بالمسيح

---

(١) سورة العنكبوت ، من الآية : ٤٠ .

(٢) أنطاكية فى القاموس بدون تشديد الياء وفى هامشه بتشديدها .

ـ عليه السلام ـ ولهذا كانت عند النصارى إحدى المدائن الأربعة التى فيها «بطارقة» وهى : ١ ـ القدس ٢ ـ أنطاكية ٣ ـ الإسكندرية ٤ ـ روما

فعلى هذا يتبين أن هذه القرية المذكورة فى القرآن قرية أخرى غير أنطاكية المعروفة كما قال بذلك غير واحد من السلف . ا هـ ابن كثير .

(يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ ۚ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٠﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٣١﴾ وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٣٢﴾)

المفردات :

(يَاحَسْرَةً) الحسرة : الغم والندم .

(الْقُرُونِ) : جمع قرن والمراد بهم : القوم المقترنون فى زمن واحد .

التفسير

٣٠ ـ (يَاحَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ) :

نداء للحسرة تنزل بهم كأنما قيل لها : تعالى ياحسرة فهذه من أحوالك التى حقك أن تحضرى فيها ، وهى حال استهزائهم بالرسل الذين جاءوهم ليخرجوهم من الظلمات إلى النور .

والمعنى : أنهم أحقاء بأن يتحسر عليهم المتحسرون من الملائكة والمؤمنين من الثقلين ، ويجوز أن يكون من الله على سبيل المجاز لتهويل ماجنوه على أنفسهم وفرط إنكاره له ؛ لأنهم ما يأتيهم رسول من الرسل إلا كانوا به يستهزئون ، ومنه يسخرون ، وبما جاءهم

به من الحق يكذبون ويجحدون . والحسرة كما قال الراغب : الغم على مافات والندم عليه ، والمراد بالعباد مكذبو الرسل ويدخل فيهم المهلكون المتقدمون دخولا أوّليا .

٣١ - (أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ) :

أى : ألم يعلموا فيتعظوا بمن أهلك الله قبلهم من القرون الماضية والأمم السابقة المكذبين للرسل وهم كثيرون ، ألم يروا كيف قضينا أنهم إليهم لايرجعون ، وليس لهم فى هذه الدنيا كرة ولا رجعة ، ولم يكن الأمر كما زعم كثير من جهلتهم من قولهم : « إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ »[1] وهم القائلون بالدور من الدهرية وغيرهم من الذين يعتقدون أنهم يعودون إلى الدنيا كما كانوا فيها ، يحكى عن ابن عباس -رضى الله عنهما - أنه قيل له يوما : إن قوما يزعمون أن عليا مبعوث قبل يوم القيامة ، فقال : بئس القوم نحن : نكحنا نساءه وقسمنا ميراثه ، أما تقرءون : « أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَايَرْجِعُونَ » .

٣٢ - (وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ) :

بيان لرجوع الكل إلى المحشر بعد بيان عدم الرجوع إلى الدنيا ، أى : ما كل الأمم السابقة واللاحقة إلا مجموعون لدينا مقهورون على الحضور إلينا يوم القيامة فنجازيهم بأعمالهم كلها خيرها وشرها ، وهذا كقوله - تعالى - : «وَإِنَّ كُلاًّ لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُم [2]» وفى الآية دليل على أن المهْلَك عقابا لايترك بل يعذب فى الآخرة على كفره فوق ماناله من عقاب فى الدنيا .

---

(١) سورة (المؤمنون) الآية : ٣٧

(٢) سورة هود ، من الآية : ١١١

(وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾)

المفردات :

(الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ) : المُجْدبة .

(فَجَّرْنَا) : شققنا .

(الْأَزْوَاجَ) : الأنواع والأصناف ، وقال قتادة : الذكر والأنثى .

التفسير

٣٣- (وَءَايَةٌ لَّهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ) :

أى : ودلالة قوية لهم على وجود الصانع وقدرته التامة وإحيائه للموتى ، الأرض الجدباء تراها ميتة هامدة لاشئ فيها من النبات ، فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت وأخرجنا منها حبا فمنه يأكلون .

وتقديم لفظ (منه) فى قوله - تعالى - :(فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ) للدلالة على أن الحَبَّ هو الشئ الذى يرتبط به معظم العيش ، فكأنه لامأكول سواه ، فإذا قلَّ الماء جاء القحط ووقع الضرر ، وإذا فقد جاء الهلاك ونزل البلاء .

٣٤- (وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ) :

وأنشأنا فى الأرض جنات -حدائق- وبساتين من : نخيل وأعناب وغيرهما ، وخصهما

بالذكر لأنهما غذاء ودواء وفاكهة ، وشققنا فيها من عيون الماء ماينبت الشجر ، ويخرج الزهر وينضج الثمر .

والجنات : جمع جنة - وهى كما قال الراغب - الجنة - كل بستان ذى شجر يستر بأشجاره الأرض ، وقد تسمى الأشجار الساترة جنة ، من الجَنّ وهو الستر .

٣٥ - (لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ) :

أى: وجعلنا فيها جنات ليأكلوا مما خلق الله فيها من الثمر ، وليأكلوا من الذى عملوه وصنعوه بأيديهم ، والمراد به : مايتخذ من الثمر كالعصير والدبس وغيرهما ، وقال الزمخشرى : وما عملته أيديهم من الغرس والسقى والآبار وغير ذلك من الأعمال إلى أن بلغ الثمر منتهاه وإبّان أكله ، يعنى أن الثمر فى نفسه فعل الله وخلقه ،وفيه آثار من كد بنى آدم .

ويجوز أن تكون (ما) نافية فى قوله : (وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ) والمعنى: وما عملت الثمر أيديهم فهو من خلق الله ، وأثر ذلك عن ابن عباس والضحاك وغيرهما .

(أَفَلَا يَشْكُرُونَ) إنكار واستقباح لعدم شكرهم للمنعم بالنعم الكثيرة ، وحث ودعوة إلى شكر المتفضل ، ويكون الشكر بالتوحيد ، والعبادة ، وحسن الثناء على الله ، والاعتراف بآلائه .

٣٦ - (سُبْحَانَ الَّذِى خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ) :

استئناف مسوق لاستعظام ماذكر فى الآيات الكريمة قبلها من بديع آثار قدرته ، وأسرار حكمته ، وروائع نعمائه ، الموجبة لشكره ، والمقصود من قوله : « سُبْحَانَ . . . » تنزيه الله - تعالى - عن كل نقص وتخصيصه بالعبادة ، والتعجيب من إخلالهم بذلك والحال هذه .

والمعنى : تنزيها وتقديسا لله الذى خلق الأشياء كلها على سنن : الذكورة والأنوثة من النبات والإنسان ومما لايعلم الناس ،قال - تعالى - : «وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ »[1] .

---

(١) سورة الذاريات ، الآية : ٤٩

فهو ـ سبحانه ـ جعل قانون الذكورة والأُنوثة فى مخلوقاته كلها، سواءٌ فى ذلك النباتات والحيوانات والبشر، وفيما لايعلمه الناس من الأَحياءِ غير المنظورة من أزواج لم يطلعهم الله عليها ولاتوصلوا إلى معرفتها بطريق من طرق العلم، ولايبعد أن يخلق الله على هذا النحو من الخلائق مالم يجعل للبشر طريقا إلى العلم به ؛ لأَنه لاحاجة بهم فى دينهم ودنياهم إلى ذلك العلم، ولو كانت بهم إليه حاجة لأَعلمهم بما لايعلمون قال ـ تعالى ـ : « وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ »[1] .

وفى الإعلام بكثرة أنواع ماخلق ـ ماعلموه وماجهلوه ـ مايدل على عظم قدرته واتساع ملكه .

وقال الراغب : (الأزواج) : جمع زوج : ويقال لكل واحد من القرينين ولكل مايقترن بآخر مماثلا له أو مضادا، وكل مافى العالم زوج من حيث إن له ضدا أو مماثلاً ما، بل لاينفك بوجه من تركيب صورة ومادة وجوهر وعرض . اهـ : آلوسى .

(وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾) .

المفردات :

(نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ) : ننزع من مكانه الضوءَ ونزيله ونفصله فيظلم .

---

(١) سورة النحل، من الآية : ٨

(لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا) : لحد معين من فلكها تنتهى إليه فى آخر السنة ، وسيأْتى تفصيل أكثر .

(قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ) : قدرنا سيره فى منازل ومسافات ، والمنازل جمع منزل ، والمراد به المسافة التى يقطعها القمر فى يوم وليلة .

(كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ) العرجون القديم : أَصل شمراخ النخل القديم وهو اليابس الذى دق وانحنى واصفر .

(ذَلِكَ) قال الراغب : مجرى الكواكب .

(يَسْبَحُونَ) : يسيرون ويدورون .

التفسير

٣٧ ـ (وَءَايَةٌ لَّهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ) :

بيان لقدرته ـ سبحانه وتعالى ـ الباهرة فى الزمان بعد ما بينها فى المكان ، أى : وعلامة دالة على توحيد الله وقدرته ووجوب ألوهيته : الليل ننزع ونفصل عنه النهار الساتر له ، ونكشف ونزيل الضوء عن مكانه ؛ فإذا الناس داخلون فى الظلام المشتمل عليهم من كل جانب : المحيط بهم من كل جهة .

٣٨ ـ (وَالشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ) :

أى : وآية أُخرى لهم الشمس تجرى لمستقر لها ، أى : لحد لها مؤقت تنتهى إليه من فلكها فى آخر السنة ؛ شبه بمستقر المسافر إذا قطع سيره ، أو لمُنتهًى لها من المشارق والمغارب فذلك حدها ، ومستقرها ؛ لأَنها لا تعدوه ، أو لحد لها من مسيرها كل يوم فى رأى عيوننا وهو المغرب ، وقيل : مستقرها : أَجلها الذى أَقر الله عليه أمرها فى جريها فتستقر وينقطع جريها وهو يوم القيامة .

(ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ) ذلك الجرى على هذا التقدير والحساب الدقيق الذى تكل الفِطَنُ عن استخراجه وتتحير الأَفهام فى استنباطه ما هو إلا تقدير الغالب بقدرته على كل مقدور ، المحيط علمه بكل معلوم .

٣٩ ـ (وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ) :

والقمر جعلناه بتدبير محكم وتنظيم دقيق منازل ، يبدو أول الشهر ضئيلا ، ثم يزداد نوره حتى يكتمل بدرا ، ثم يأخذ فى النقصان فى أواخر سيره حتى يعود فى مرآه كأصل الشمراخ إذا قدُم فدق وانحنى واصفر .

٤٠ ـ (لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ ، وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ) :

إن الله ـ تعالى ـ قسم لكل واحد من الليل والنهار قسما من الزمان ، وضرب لهما حدا معلوماً ، ودبَّر أمرهما على التعاقب ، فلا ينبغى للشمس التى هى آية النهار أى : لا يصح ولا يستقيم لها أن تدرك القمر الذى هو آية الليل فتجتمع معه فى وقت واحد ، وتداخله فى سلطانه ، فتجعل الليل نهارًا ، ولا الليل بظلامه غالب النهار فيجعله ليلًا .

وكل واحد من الشمس والقمر فى مجراه الذى حدده الله له يسيران فيه كالسابح فى الماء ، ويدوران حسب النظام الذى وضعه الله ، ولا يزال الأمر على هذا الترتيب إلى نهاية العالم حيث تطلع الشمس من مغربها فى آخر الزمان ، وجعلت الشمس غير مدركة والقمر غير سابق ، لأن الشمس لا تقطع فلكها إلا فى سنة ، والقمر يقطع فلكه فى شهر فكانت الشمس جديرة بأن توصف بالإدراك لتباطؤ سيرها عن سير القمر ، والقمر خليقاً بأن يوصف بالسبق لسرعة سيره فى رأى العين .

(وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ﴿٤٣﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَـٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤٤﴾)

المفـردات :

(ذُرِّيَّتَهُمْ) : أولادهم ، وقال الطبرى : من نجا من ذرية آدم ، وسيأتى بيان ذلك .

(الْمَشْحُونِ) : المملوء .

(فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ) : فلا مغيث لهم من الغرق .

التفسير

٤١ – (وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ) :

وآية أخرى لهم أنا حملنا بنى الإنسان فى السفن المملوءة بهم الموقَرة بأَمتعتهم وبأَرزاقهم قيل : المراد بالفلك المشحون : سفينة نوح – عليه السلام – ومعنى حمل الله ذرياتهم فيها أنه حمل فيها آباءهم الأَقدمين وفى أصلابهم هم وذرياتهم ، وإنما ذكر ذرياتهم ؛ لأَنه أبلغ فى الامتنان عليهم وأدخل فى التعجب من قدرته فى حمل أعقابهم إلى يوم القيامة فى سفينة نوح – عليه السلام – وقال الإمام: يحتمل عندى أن تخصيص ذريتهم بالذكر لأَن الموجودين المخاطبين من أهل مكة بهذا كانوا كفارا لا فائدة فى وجودهم ، أَى : لم يكن الحمل حملا لهم وإنَّما كان حملا لما فى أصلابهم من المؤمنين – ذكره الآلوسى – والآية تحتمل العبرة والنعمة والإنذار .

٤٢ – (وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ) :

وخلقنا لهم من مثل الفلك ما يركبون عليه وهى الإبل فإنها سفائن البر لكثرة ماتحمل وقلة كلالها فى المسيرة ، وإطلاق السفائن عليها شائع معروف فى اللغة كما قيل : «سفائن بَرٍّ والسرابُ بحارها» ، وفسره مجاهد بكل ما يركب ، وقيل : هى السفن والزوارق التى كانت بعد سفينة نوح – قال النحاس : وهو أصحها لأَنه متصل الإسناد عن ابن عباس ١٠ هـ : قرطبى .

٤٣ – (وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ) :

وإن نشأْ إغراقهم فى الماء بما اكتسبت أيديهم ، وبما اجترحوا من سيئات ، وعملوا من موبقات ، مع ما حملناهم فيه من الفلك فلا مغيث لهم يحفظهم مما نزل بهم ولا هم ينجون من الغرق بعد وقوعه .

٤٤ – (إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَاعاً إِلَى حِينٍ) :

أى : لا يغاثون ولا ينقذون لشىء من الأَشياء إلا لرحمة عظيمة من قبلنا ، داعية إلى

الإغاثة والإنقاذ وتمتيع بالحياة إلى زمان قدر فيه انتهاء آجالهم ، حسبما تقتضيه الحكمة ومن هنا أخذ أبو الطيب قوله :

ولم أسلم لكى أبقى ولكن ∴ سلمت من الحِمام إلى الحِمام [1] .

فنحن لا نغرقهم إلا رحمة منا بهم لنمتعهم إلى أجل قدرناه لهم .

(وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُواْ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٥﴾ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤٦﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٧﴾)

المفردات :

(اتَّقُواْ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ) : خافوا واحذروا مثل عذابِ الأُمم التى قبلكم .

(وَمَا خَلْفَكُمْ) : عذاب الآخرة ،وقيل : (مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ) : ما تقدم من ذنوبكم ، (وَمَا خَلْفَكُمْ) : ما يأْتى منها .

التفسير

٤٥ - (وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُواْ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ) :

بيان لإعراضهم عن الآيات التنزيلية بعد بيان إعراضهم عن الآيات الآفاقية التى كانوا يشاهدونها ولا يتأملون فيها ، أى : وإذا قيل لأهل مكة بطريق الإنذار بما نزل فيهم من الآيات : (اتَّقُواْ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ) أى : احذروا مثل عذاب الأُمم التى قبلكم (وَمَاخَلْفَكُمْ) أى : عذاب الآخرة الذى أعده الله لكم لسوء أعمالكم وإصراركم على كفركم (لَعَلَّكُمْ

(١) الحمام - بكسر الحاء - : الموت .

تُرْحَمُونَ) أى : لكى يرحمكم ربكم إن اتقيتموه فتنجوا من العذاب ، وجواب (إِذَا قِيلَ لَهُمْ . . .) تقديره : أعرضوا ، ويدل على هذا الجواب قوله ــ تعالى ــ :

٤٦ ــ (وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ) :

أى : وما تأتيهم من حجة وعلامة على التوحيد وصدق الرسل إلا كانوا عنها معرضين لا يتأملونها ولا يقبلونها ولا ينتفعون بها لأن دأبهم الإعراض عن كل آية وموعظة .

والمراد بالآيات : إما هذه الآيات الناطقة بما فصل من بدائع صنعه ــ تعالى ــ وسوابغ آلائه الموجبة للإقبال عليها والإيمان بها ، وإيتاؤها : نزول الوحى بها ، أى : ما نزل الوحى بآية من الآيات الناطقة بذلك إلا كانوا عنها معرضين على وجه التكذيب والاستهزاء ، وإمَّا مايعمها والآيات التكوينية الشاملة للمعجزات وغرائب المصنوعات ، وإيتاؤها : ظهورها لهم ، أى : وما تظهر لهم من آية من الآيات التى من جملتها ما ذكر من شئونه ــ تعالى ــ الشاهدة بوحدانيته ــ سبحانه ــ وتفرده بالألوهية إلا كانوا عنها معرضين تاركين للنظر الصحيح فيها المؤدى إلى الإيمان به ــ عز وجل ــ .

٤٧ ــ (وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَالٍ مُّبِينٍ) :

الآية الكريمة لذمٍّ الكفار على ترك الشفقة على خلق الله إثر ذمهم على ترك تعظيمه ــ عز وجل ــ بترك التقوى ، وفى ذلك إشارة إلى أنهم أخلوا بجميع التكاليف ؛ لأنها كلها ترجع إلى أمرين : التعظيم لله ، والشفقة على خلقه ــ سبحانه ــ .

والمعنى : وإذا أُمر الكفار بالإنفاق مما رزقهم الله على الفقراء والمحتاجين من المسلمين قال الذين كفروا لمن أمرهم من المؤمنين بالإنفاق محاجين لهم فيما أمروهم به : (أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ) أى : هؤلاء الذين أمرتمونا بالإنفاق عليهم لو شاء الله لأغناهم ولأطعمهم من رزقه ، فنحن نوافق مشيئةَ الله ــ تعالى ــ فيهم فلا نطعمهم تحقيقاً لمشيئة الله ، ما أنتم فى أمركم لنا بإطعامهم إلا فى ضلال واضح ، حيث تأمروننا بما يخالف مشيئة الله ، وقيل : (إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَالٍ مُّبِينٍ) : قول الله لهم وهو رأى ابن جرير ،

وقيل : كلام المؤمنين للرد على الكافرين وآرائهم الضالة وأقيستهم الفاسدة ؛ لأن الله يطعم بأسباب : منها حث الأغنياء على إطعام الفقراء وتوفيقهم له ، وذلك لحكمة غابت عن عقولهم ، وهى نشر المودة والرحمة والتعاون والعدل الاجتماعى .

ولقد نزلت الآية الكريمة فى مشركى قريش حين قال فقراءُ أصحاب رسول الله ﷺ : أعطونا مما زعمتم من أموالكم أنها لله ، يعنون قوله ـ تعالى ـ :(وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيباً)[1] فحرموهم وقالوا : لو شاء الله لأطعمكم .

وعن ابن عباس : كان بمكة زنادقة فإذا أمروا بالصدقة على المساكين قالوا : لا والله أيفقرهم الله ونطعمهم نحن ؟ وعن الحسن وأبى خالد أن الآية نزلت فى اليهود أُمروا بالإنفاق فقالوا ذلك ، والظاهر أنها فى كفار مكة كما تقدم .

(وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٨﴾ مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾)

المفردات :

(مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ) : يعنون وعد البعث .

(صَيْحَةً وَاحِدَةً) : نفخة الموت بها يموت جميع الناس ، يحدثها إسرافيل فى الصور .

(تَأْخُذُهُمْ) : تقهرهم وتستولى عليهم فيهلكون .

(يَخِصِّمُونَ) : يختصمون ويتنازعون فى أمورهم غافلين عنها .

(١) سورة الأنعام ، أول الآية : ١٣٦

التفسير

٤٨ - (وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ) :

ويقول المشركون للرسول والمؤمنين - استبعادا للبعث وإنكارا له واستهزاءً بالمؤمنين - : متى يقع هذا الذى وعدتمونا به ويتحقق؟ إن كنتم صادقين فيما تقولون وتعدوننا به فأخبرونا بذلك ، يقولون ذلك لأنهم كانوا يتلون عليهم الآيات الدالَّة عليه والآمرة بالإيمان بالله وبالبعث .

٤٩ - (مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُم وَهُمْ يَخِصِّمُونَ) :

جواب من الله - تعالى - أى : ما ينتظرون إلا صيحة واحدة عظيمة وهى النفخة الأُولى فى الصور التى يموت بها الناس ، ولأن الصيحة لا بد من وقوعها جعلوا كأنهم منتظرون لها تهكما بهم (تَأْخُذُهُمْ) أى : تقهرهم وتستولى عليهم فيهلكون وهم يتخاصمون ويتنازعون فى معاملاتهم ومتاجرهم لا يخطر ببالهم شىء من مخايلها كقوله - تعالى - : (هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ)[1] أخرج الشيخان وغيرهما عن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : «لَتَقُومَنَّ الساعة وقد نشر الرجلان ثَوْبَهما بينهما فلا يتبايعانه ولا يطْويانِه ، ولتقومنَّ الساعةُ والرجل يليط[2] حوضه فلا يُسْقَى منه ، ولتقومن الساعة وقد انصرف الرجل بلبن نعجته فلا يطْعمُه ، ولتقومن الساعة وقد رفع أُكلَتَهُ[3] إلى فمه فلا يطعمها » إ هـ : آلوسى .

٥٠ - (فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ) :

فلا يستطيعون لسرعة ما نزل بهم توصية على ما يملكون ولا أن يوصوا بشىء فى أمورهم لأن الأمر أهم من ذلك ، ولا إلى أهلهم ومنازلهم يرجعون إذا كانوا فى خارج ديارهم ، بل تبغتهم الصيحة فيموتون حيثما كانوا ووجدوا ، ويرجعون إلى الله - عز وجل - لا إلى غيره - سبحانه - .

---

(١) سورة الزخرف ، الآية : ٦٦

(٢) يليط حوضه : يطينه واللياط - ككتاب - : الجص .

(٣) أكلته - بالضم - : اللقمة ، - وبالفتح - : للمرة من الأكل .

(وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٤﴾)

المفـردات :

(الصُّورِ) : القرن ، وحقيقة الصور وكيفية النفخ مما استأثر الله بعلمه .

(الأَجْدَاثِ) : القبور ، جمع جدث .

(يَنسِلُونَ) : يسرعون .

(مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا) : من أيقظنا من منامنا ؟

التفسـير

٥١ - (وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَاهُم مِّنَ الأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ) :

ونفخ فى الصور نفخة البعث فإذا الأموات من القبور إلى ربهم ومالك أمرهم يسرعون بطريق الإجبار لقوله -تعالى- :(لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ)[1] وذكر الرب للإشارة إلى إسراعهم بعد الإساءة إلى من أحسن إليهم وربَّاهم بنعمه على موائد كرمه .

٥٢ - (قَالُوا يَاوَيْلَنَا مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا هَٰذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ) :

قال المبعوثون من القبور بعضهم لبعض : ياهلاكنا وعذابنا ،أو ياقومنا انظروا أهوال ما ينتظرنا وتعجبوا منه (مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ؟) أى : من أيقظنا من منامنا ، وفيه تشبيه الموت بالرقاد لعدم ظهور الفعل فى كل ، وقيل : سموا ذلك مرقدا مع علمهم بما كانوا

(١) سورة يس من الآية : ٣٢

يقاسون فيه من العذاب لعظم ما شاهدوه ، فكأن ذلك مرقدٌ بالنسبة لهم ، فقد روى أنهم إذا عاينوا جهنم وشاهدوا ما فيها من ألوان العذاب وأنواع النكال الذى لا يخطر على بال ، يرون ما كانوا فيه مثل النوم فى جنبها فيقولون :من بعثنا من مرقدنا ؟ فيأتيهم جواب سؤالهم : هذا يومُ البعث الذى وعد الرحمن عباده وصدق المرسلون فيما أخبروا به عنه ، وروى عن ابن عباس : أن الله -تعالى- يرفع عنهم العذاب بين النفختين فيرقدون فإذا بعثوا بالنفخة الثانية وشاهدوا الأهوال قالوا ذلك - ويقول ابن عباس : نقول ، وهو- على ما قيل -جواب من قبل الله ، وقيل : من جهة الملائكة ، وقال قتادة ومجاهد : من قبل المؤمنين ، وقال ابن زيد : هذا الجواب من قبل الكفار على أنهم أجابوا أنفسهم حيث تذكروا ما سمعوه من المرسلين-عليهم السلام-أو أجاب بعضهم بعضا به ، وكان الظاهر أن يجابوا بذكر الباعث ، لأنه هو الذى سألوا عنه ، بأن يقال : الرحمن ، أو الله بعثكم ، لكن عدل عنه إلى ما ذكر تذكيراً بكفرهم وتقريعا لهم عنه ، مع تضمنه الإشارة إلى الباعث ، وذكر غير واحد : أنه من الأسلوب الحكيم ، على أن المعنى : لا تسألوا عن الباعث فإن هذا البعث ليس كبعث النائم وإن ذلك ليس مما يهمكم الآن ، وإنما الذى يهمكم أن تسألوا : ما هذا البعث ذو الأهوال العظيمة والشدائد ؟ وفيه من تقريعهم ما فيه .

٥٣ - (إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ) :

أى : ماكانت النفخة التى حكيت آنفا لدعوتهم للخروج من قبورهم إلا صيحة واحدة حدثت من نفخ إسرافيل - عليه السلام - فى الصور فإذا هم مجموعون عندنا ، وفى محل حكمنا محضرون لفصل الحساب من غير لبث طرفة عين ، وفيه من تهوين أمر البعث والحشر والإيذان باستغنائهما عن الأسباب مالايخفى .

٥٤ - (فَالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ) :

فاليوم الحاضر أو المعهود وهو يوم القيامة الدال عليه نفخ الصور ، لاتنقص نفس من النفوس -برَّةً كانت أو فاجرة- أجر شىء مما عملته ، ولاتلقون إلا جزاء ماكنتم تعملون من خير وشر ، وهذا حكاية عما يقال للكافرين حين يرون العذاب المعد لهم تحقيقا للحق وتقريعاً لهم .

واستظهر أبو حيان أن الخطاب يعم المؤمنين ، إخبارا من الله – تعالى – عما لأهل المحشر على العموم ، كما يشير إليه تنكير نفس ، واختاره السكاكى .

(إِنَّ أَصْحَـٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَـٰكِهُونَ ﴿٥٥﴾ هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَـٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ﴿٥٦﴾ لَهُمْ فِيهَا فَـٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ﴿٥٧﴾ سَلَـٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴿٥٨﴾ وَٱمْتَـٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾)

المفردات :

(شُغُلٍ) : نعيم عظيم يلهيهم عما سواه .

(فَاكِهُونَ) : متلذذون أو فرحون أو متعجبون مما هم فيه .

(الْأَرَائِكِ) جمع أريكة ، وهى – كما فى الصحاح – : سرير منجد مزين فى قبة أو بيت .

(لَهُم مَّايَدَّعُونَ) : لهم مايطلبون ، أى : يتمنون .

(امْتَازُوا) : تميزوا وانفردوا عن المؤمنين .

التفسير

٥٥ – (إِنَّ أَصْحَبَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَكِهُونَ) :

إخبارٌ لنا بما يكون يوم القيامة إذا صار كل إلى ما أُعد لهم من الثواب والعقاب ، فأصحاب الجنة اليوم فى شغل ، والشغل هو الشأن الذى يشغل المرء ويصده عما سواه من شئون ، لكونه أهم عنده من الكل ، إما لإيجابه كمال المسرة أو كمال المساءة ،

والمراد هنا الأول ،وتنكيره للتعظيم ، كأنه شغل لايدرك كُنْهُه ، والمراد به ماهم فيه من النعيم الذى شغلهم عن كل ماسواه ، وماظنك بشغل مَنْ سعد بدخول الجنة التى هى دار المتقين ، ووصل إلى نيل تلك الغبطة وذلك الخير الكثير والنعيم المقيم ، وتمتع بتلك الملاذ التى أعدها الله للمرتَضَيْنَ من عباده ، ثوابا لهم على أعمالهم مع كرامة وتعظيم .

وعن ابن كيسان : الشغل : التزاور وضيافة الله .(فَاكِهُونَ) متلذذون فرحون معجبون بما أكرمهم الله به ،والفاكِهُ والفَكِهُ : المتنعم المتلذذ ، ومنه الفاكهة لأنها مما يتلذذ بها ،وكذلك الفُكاهة التى هى المِزاحة .

٥٦ - (هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِى ظِلَٰلٍ عَلَى الْأَرَآئِكِ مُتَّكِئُونَ) :

استئناف مسوق لبيان كيفية شغلهم وتفكههم وتكميلها بما يزيدهم بهجة وسرورا من مشاركة أزواجهم لهم فى ذلك الشغل والتفكه والاتكاء على الأرائك تحت الظلال ، فهم وأزواجهم فى ظلال ، جمع ظُلَّة أو ظِلّ ، وفسر الإمام الظل بالوقاية عن مظان الألم ، ولأهل الجنة من ظل الله -تعالى- ما يقيهم كل سوء وألم ،والجمع (فى ظلال)باعتبار ما لكل واحد منهم من ذلك ، أو هو متعدد للشخص الواحد باعتبار تعدد ما منه الوقاية .

ويجوز حمل الظلال على القوة والمنعة ،كما يجوز حمله على الستور التى تكون فوق الرأس من سقف وشجر ونحوها ، ووجود ذلك فى الجنة مما لا شبهة فيه ، فقد جاء فى الكتاب وصح فى السنة : أن فيها غرفاً ، وجاء فيها أيضاً ماهو ظاهر فى أن فيها شجرًا يظل من تحته ، وقد صح من رواية الشيخين أنه ﷺ قال : « إن فى الجنةِ شجرةً يسيرُ الراكبُ فى ظلها مائةَ عام لا يقطعها ، فاقرءُوا إن شئتم : (وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ) »[1] .

وابن الأثير يقول : فى ظلها فى ذراها وناحيتها ، وهذا الرأى لدفع أنها تظلُّ من الشمس لأنه لا شمس فى الجنة ، والقول فى الآراء السابقة كذلك فى أنها لاتظل من الشمس ، إذ لا شمس فيها .

---

(١) سورة الواقعة ، الآية : ٣٠

(عَلَى الْأَرَآئِكِ مُتَّكِئُونَ) : على السرر المنجدة المزينة بالستور متكئون ، والظاهر أن المراد بالأزواج : أزواجهم المؤمنات اللائى كن لهم فى الدنيا ، وقيل : أزواجهم اللاتى زوجهم الله - تعالى - إياهن من الحور العين ، كما يجوز أن يكون المراد بأزواجهم أشكالهم فى الإحسان ، وأمثالهم فى الإيمان .

٥٧ - (لَهُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ) :

بيان لما يتمتعون به فى الجنة من المآكل والمشارب وما يتلذذون به من الملاذ الجسمية والروحية بعد بيان مالهم فيها من مجالس الأنس ومحافل المتعة تكميلا لبيان كيفية ماهم فيه من الشغل والبهجة .

والمعنى : لهم فى الجنة فاكهة كثيرة من خير أنواعها ، لا مقطوعة ولا ممنوعة ، مذللة لهم إن شاءوا أكلوا ، وإن شاءوا أمسكوا ، ولهم فيها كل ما يطلبونه ويتمنونه .

٥٨ - (سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ) :

أى : سلام يقال لهم قولا من جهة رب رحيم ، أى : يسلم عليهم الله - جل جلاله - بلا وسيط تعظيماً لهم ، فقد أخرج ابن ماجة وجماعة عن جابر قال : قال النبى ﷺ : « بينما أهـلُ الجنةِ فى نعيم إذْ سطع لهم نورٌ فرفعوا رءوسَهم فإذا الربُّ قد أشرف عليهم من فوقهم فقال : السلام عليكم يا أهلَ الجنةِ وذلك قول الله - تعالى - : (سَلَامٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ) قال : فينظر إليهم وينظرون إليه فلا يلتفتون إلى شىءٍ من النعيم ما داموا ينظرون إليه حتى يحتجب عنهم ويبقى نوره وبركته عليهم فى ديارهم » .

وقيل : يسلم عليهم عن طريق الملائكة لقوله - تعالى - : « وَالْمَلَآئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ * سَلَامٌ عَلَيْكُم »[1] . وروى ذلك عن ابن عباس ، يقول الآلوسى : وعلى الأول الأكثرون ، وأقول : لا منافاة ، فالله - سبحانه وتعالى - يسلم عليهم والملائكة كذلك .

---

(١) سورة الرعد، من الآيتين : ٢٣ ، ٢٤

٥٩ ـ (وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ) :

يقول الله ـ عز وجل ـ مخبرًا عما يؤول إليه حال الكفار يوم القيامة من أمره لهم أن يمتازوا بمعنى يتميزون عن المؤمنين فى موقفهم ، يقول لهم : انفردوا عن المؤمنين ، وكونوا على حدة أيها المجرمون الآثمون ، فإنكم واردون غير موردهم ، وذلك حين يحشر المؤمنون ويسار بهم إلى الجنة ، ونحوه قوله ـ تعالى ـ : « وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ » [1] .

* (أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ اعْبُدُونِي هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾)

المفردات :

(أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ) : ألم أوصكم .

(أن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ) : ألا تطيعوه فى معصيتى .

(إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ) : إنه لكم عدو واضح العداوة .

(هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ) : هذا العهد طريق لاعوج فيه .

(جِبِلًّا كَثِيرًا) : خلقاً كثيرًا ، وقال الراغب : الجبل : الجماعة العظيمة ، وقال غيره : الجبل : الأمة ، وهى معان متقاربة .

---

(١) سورة الروم، الآية : ١٤ .

التفسير

٦٠ ـ (أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ) :

هذه الآية من جملة ما يقال لبنى آدم الذين تركوا عبادة الله طاعة للشيطان ، وذلك بطريق التقريع والتبكيت والإلزام بين الأمر بالامتياز (وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ) والأمر بمقاساة جهنم (هَٰذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ) .

والعهد بمعنى الوصية والتقدم بأمر فيه خير ومنفعة ، والمراد به هنا : مختلف الحجج العقلية والسمعية الآمرة بعبادة الله ـ تعالى ـ الزاجرة عن عبادة غيره ، التى أبلغها الرسل إلى بنى آدم ، ومن ذلك قوله ـ تعالى ـ : (يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ) . فكأن العهد مستعار لإقامة البراهين والحجج .

وفسره بعض المفسرين بالميثاق المأخوذ على بنى آدم فى عالم الذر فى قوله ـ سبحانه ـ : (أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ) .

والمراد بعبادة الشيطان : طاعته فيما يوسوس به إليهم من معصية الله ، عبر عنها بعبادته لزيادة التنفير منها ، وجوز أن يراد بها عبادة غير الله من الآلهة الباطلة ، وإضافتها إلى الشيطان لأنه الآمر بها والمزين لها ، فالتجوز فى النسبة .

ومعنى الآية : ألم أوصكم يابنى آدم أن لا تطيعوا الشيطان فيما يوسوس به إليكم من المعاصى ، لأنه لكم عدو مبين واضح العداوة ، فقد أخرج أبويكم من الجنة ، فلماذا أطعتموه حتى أصبحتم بطاعته مجرمين كافرين مستحقين للخلود فى النار .

٦١ ـ (وَأَنِ اعْبُدُونِي هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ) :

معطوف على (أن لا تعبدوا الشيطان) داخل معه فى العهد ، أى : ألم أعهد إليكم بأن لا تعبدوا الشيطان وبعبادتى وحدى ، فهذا العهد صراط مستقيم لاعوج فيه ، فلماذا تنكرتم لعهدى ، وخالفتم وصيتى فاتبعتم الشيطان وأطعتموه ، وتركتم عبادتى ، وعبدتم آلهة أشركتموها معى ؟ .

٦٢ ـ (وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلاًّ كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُواْ تَعْقِلُونَ) :

استئناف مسُوق لتشديد التوبيخ والتقريع ، ببيان عدم اتعاظهم بغيرهم إثر بيان نقضهم للعهد ، والخطاب لمتأخريهم ومنهم كفار مكة .

والمعنى : ولقد أضل الشيطان منكم ـ يا بنى آدم ـ أمما كثيرة ، أكنتم تشاهدون آثار عقوباتهم فلم تكونوا تعقلون أنها لضلالهم ، أو أفلم تكونوا تعقلون شيئا أصلاً ، فلذلك كفرتم ككفرهم واستحققتم العذاب مثلهم .

(هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٦٤﴾ ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾)

المفـردات :

(اصْلَوْهَا الْيَوْمَ) : ادخلوها اليوم وقاسوا سعيرها .

(نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَاهِهِمْ) : نمنعها من الكلام .

(وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ) : كلام دلالة أو نطق .

التفسير

٦٣ ـ (هَٰذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ) :

هذا كلام مستأنفٌ تقوله خزنة جهنم لأهل النار عند إشرافهم على شفير جهنم بعد انتهاء التوبيخ والإلزام .

والمعنى : هذه ــ التى ترونها ــ جهنم التى كنتم فى الدنيا توعدون بها على ألسنة الرسل والمبلغين عنهم إن اتبعتم الشيطان فيما يزينه لكم من الكفر والمعاصى كقوله ــ تعالى ــ : (لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ) .

٤ ــ (اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ) :

اصلوها : أمر تحقير وإهانة لأهل النار ، والمعنى : ادخلوا جهنم فى هذا اليوم وقاسوا ألوان العذاب فيها بسبب ما كنتم مستمرين عليه من الكفر والمعاصى فى الدنيا .

٦٥ ــ (الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ) :

الأفواه : جمع فوه ، وهو الفم ، والختم عليها كناية عن منعها من الكلام ، وتوفيقاً بين هذه الآية وبين آية سورة النور « يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ » [1] أن يوم القيامة مواقف ، ففى موقف تخرس الألسنة ، وفى آخر تتكلم .

أخرج أحمد ومسلم وابن أبى الدنيا واللفظ له عن أنس فى قوله ــ تعالى ــ : (الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ) قال : « كنا عند النبى ﷺ فضحك حتى بدت نواجذه ، قال : أتدرون مم ضَحِكْتُ » ؟ قلنا : لا يا رسول الله ، قال : « من مخاطبةِ العبدِ ربَّه يقول : يارب ألم تجرنى من الظلم؟ فيقول : بلى ، فيقول : إنى لا أُجيز علىَّ شاهدًا إلا شاهدًا منى ، فيقول : كفى بنفسك اليوم عليك شهيدًا وبالكرام الكاتبين شهودًا ، فيختم على فيه ، ويقال لأركانه : انطقى ، فتنطق بأعماله ، ثم يخلى بينه وبين الكلام فيقول : بُعْدًا لَكُنَّ ، فعنكن كنت أناضل ، وشهادة الأيدى والأرجلِ عليهم دلالتها على أفعالها ، وظهور آثار معاصيها عليها ، وقيل : ذلك على الحقيقة ، بأن ينطقها الله فتتكلم وتشهد ، وهذا هو ظاهر الآية والحديث .

(١) الآية ، ٢٤

(وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ فَٱسْتَبَقُوا ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ ﴿٦٦﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ ﴿٦٧﴾ وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِى ٱلْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٨﴾)

المفردات :

(لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ) : لمحوناها وأزلنا معالمها .

(فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ) : فسارعوا إلى الطريق .

(فَأَنَّى يُبْصِرُونَ) : فكيف يبصرون .

(لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ) : لَغَيَّرنا صورَتهم فى مكانهم الذى يوجدون به .

(نُنَكِّسْهُ فِى الْخَلْقِ) : نرجعه فيه من القوة إلى الضعف ونحو ذلك .

التفسير

٦٦ - (وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ) :

هذه الآية والتى بعدها مسوقتان لبيان أن الكافرين فى هذه الدنيا تحت سلطان الله ، وأنه لو شاء عقابهم فيها بطمس الأعين والمسخ لفعل ، لكنه لم يشأ إمهالًا لهم ، وتوسيعاً لفرص التوبة .

والطمس لغة : إزالة الأثر ، والمراد من طمس أعينهم : إزالة معالمها بحيث لايكون لها فتحة تبصر منها ، ويجوز أن يراد به : إذهاب البصر مع بقاء العين مفتوحة .

والمعنى : ولو نشاء طمس أعين الكافرين فى الدنيا بأن نُزيل معالمها فتصبح ممسوحة ، أو نحبس ضوءها فلا تبصر ، فابتدروا بعد ذلك الطريق الذى اعتادوا سلوكه قبل الطمس ليسلكوه فلا يستطيعون ، فكيف يبصرون وقد طمست أبصارهم ، وأزيلت معالمها ، أوحبس

ضوءها فلا تنكشف لهم المرئيات ، لونشاءُ ذلك لفعلناه ، لكننا لم نفعل لنفسح لهم مجال التوبة .

٦٧ - (وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ) :

المراد بالمسخ تغيير الصورة على أى وجه يشاؤه الله - تعالى - مع إبطال القوى ، لقوله بعد ذلك : « فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ » .

وتحديد المسخ بقلبهم قردة وخنازير أو حجارة - كما جاء فى بعض الآراء - يعتبر تضييقاً للواسع لم يرد به دليل صحيح .

والمعنى : ولو نشاء مسخهم بتغيير صورهم على أى وجه مع إبطال قواهم ؛ لفعلنا ذلك فورًا بدون عناءٍ ، بحيث يجمدون فى أماكنهم ، فلا يستطيعون بعد ما فعلناه بهم مضيًّا إلى الأمام إقبالا ، ولا يرجعون إلى الخلف إدبارا ، لكنه تعالى لم يفعل ذلك لعدم تعلق مشيئته به ، توسعة لمجال التوبة أمامهم .

والمقصود الأساسى من الآيتين بيان استحقاقهم طمس الأعين والمسخ فى الدنيا بسبب كفرهم ونقضهم عهد الله ، وعدم اتعاظهم بعقاب من سبقهم ، ولولا أنه تعالى شاء استبقاءهم وإمهالهم رحمة بهم - لعلهم يرجعون - لأنجز فيهم ما يستحقونه ، وعبر بقوله : « ولا يرجعون » بدل « ولا رجوعاً » المناسب لقوله (مضيا) مراعاة لفواصل الآيات .

٦٨ - (وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِى الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ) :

هذه الآية جاءت للاستدلال بما تضمنته على قدرته - تعالى - على تنفيذ ما تهددهم به من الطمس والمسخ لو تعلقت بهما مشيئته .

واعلم أن من سنن الله - سبحانه - أنه جعل الإنسان فى نشأته ينمو جسميًّا وعقليا نموًّا مطردًا ، وتزداد بذلك معالم صورته حسناً ، وقوته اقتدارًا ، حتى يصل إلى حد أراده الله لتمام خلقه ، فيبدأ كل شىءٍ فيه يتناقص ، حتى يذبل بعد تفتح وازدهار ، ويضعف بعد قوة واقتدار ، ويخمد عقله بعد اتقاد وإضاءة ، وتتضاءل صورته بعد حسن وجمال ، فذلك هو تنكيسه الذى استفيد من قوله تعالى : « وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِى الْخَلْقِ » .

قال الشاعر :

من عاش أخلقت الأيام جِدَّتَهُ وخانه ثقتاه السمع والبصر

وعن سفيان أن التنكيس يبدأ من سن الثمانين ، والحق أنه يختلف باختلاف تكوين كل إنسان ، والعوارض التى تمر عليه حسب مشيئة الله - تعالى - وقد يكون للوراثة بعض التأثير فى ذلك .

ومعنى الآية : ومن نطل عمره نَقْلِبْهُ فى الخلق والصورة والقوة على عكس ما كان عليه فى نشأته ، أيرون ذلك فلا يعقلون أن من قدر على تنكيس خلق الإنسان فهو قادر على طمس أعينهم ومسخهم فى أماكنهم فى هذه الدنيا ، وأن الله - تعالى - لم يفعل ذلك لعدم تعلق مشيئته به .

(وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٠﴾)

المفردات :

(وَمَا يَنبَغِى لَهُ) : ما يصح الشعر له ولا يصح منه .

(إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ) : ما القرآن إلا تذكير ووعظ وإرشاد .

(وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ) : وكتاب مقروء واضح يُقْرأ للاعتبار .

(وَيَحِقَّ الْقَوْلُ) : ويثبت القول بالعذاب ويجب على الكافرين .

التفسير

٦٩ - (وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِى لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ) :

لما جاءهم محمد ﷺ بالقرآن زعموا أن محمدًا شاعر ، وأن القرآن الذى أيده الله به شعر ، فأنزل الله هذه الآية لإبطال ما زعموه من الأمرين ، فإن نفى تعليم الشعر لمحمد يستتبع نفى أن القرآن شعر ، وأن الذى جاء به شاعر .

والمعنى : وما علمنا محمدًا الشعر قبل أن يقول ما قال ، حتى يصح زعمكم أن محمدًا شاعر وماجاء به شعر ، وليس القرآن من قبيل الشعر لا وزنا ولا غرضاً ولا تكويناً ، فالشعر متكلف مصنوع ، ومبنى على خيالات وأغراض واهية ، وتصورات ومبالغات مخالفة للواقع ، حتى قالوا : أعذب الشعر أكذبه ، وله أوزان معينة وقواف ثابتة ، أما القرآن فليس له أوزان الشعر ولا خيالاته الواهية ، ولا أغراضه الهزيلة ، ولا يعرف الأكاذيب التى تصور الباطل حقًّا والحق باطلا ، ولا يعرف المبالغات التى تجعل من الحبة قبة ، ومن القليل كثيرًا ، بل نظم فريد لاعهد للبشر بمثله ، ولا يستطيعون أن يحاكوه ، اشتمل على العقائد النظيفة ذات البراهين العقلية ، والأدلة الكونية ، كما اشتمل على الأحكام المنظمة لشئون الخلق ، المعلمة لحقوق الخالق ، الموصلة إلى سعادة الدارين ، وعلى الأخلاق العالية ، والحكم السديدة ، فأين الثرى من الثريا ، وإذا انتفى أن يكون شعرًا انتفى أن يكون من جاء به شاعرا ؛ لأنهم وصفوه بالشاعر من أجله « وَمَا يَنبَغِي لَهُ » أى : وما ينبغى الشعر لمحمد ﷺ ولا يليق به ، ولا يستقيم له عقلا ؛ لأنه كما قال ابن الحاجب : لوكان ممن يقوله لتطرقت التهمة عند كثير من الناس فى أن ما جاء به من قبل نفسه ، وأنه جاء من تلك القوة .

وقال غيره فى معنى « وَمَا يَنبَغِي لَهُ » : وما يصح الشعر له ؛ لأنه يدعو إلى تغيير المعنى لمراعاة اللفظ والوزن ؛ ولأن من أحسنه المبالغة والانحراف فى الوصف ، وغالبه يميل إلى الكذب ، فلا يليق بمحمد الذى عرف بالصدق منذ صباه .

وقد حدث أن النبى ﷺ قال بعض عبارات قابلة لأوزان الشعر ، مثل قوله يوم حنين : « أنا النبى لاكذب . أنا ابن عبد المطلب » وهذا لا يجعل صاحبه شاعرًا ، لأنه كلام يرد على الخاطر من غير قصد إلى الشعر ، كما يحدث لكثير من الناس .

(إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ) : أى : ما القرآن إلا وعظ وتذكير من الله لخلقه ، ليسيروا على المنهج المستقيم ، وكتاب سماوى يقرأ ليعمل به ، واضح أنه من عند الله -تعالى- بما يشتمل عليه من ألوان الإعجاز ، فأين هو مما افترى عليه من الوصف بكونه شعرًا ومن جاء به شاعرًا .

٧٠ ـ (لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ) :

المراد بمن كان حيًّا : العاقل الفهم ، فإن الغافل كالميت فلا ينفعه إنذاره ، والمراد من القول :الوعيد بالعذاب ، ومعنى قوله : (وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ) أنه يجب ويثبت عليهم لكفرهم ومعنى الآية : لينذر القرآن أو الرسول بالقرآن من كان ذا عقل وفهم فإنه هو الذى ينفعه الإنذار ، أما الغافل الجهول الذى يشبه الميت فهو بمعزل عن الاستفادة بإنذاره ، ويثبت القول المتضمن للوعيد ، ويجب على هؤلاء الغافلين المصرين على الكفر لعدم انتفاعهم بالإنذار والتخويف .

(أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾)

المفردات :

(مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا) : مما خلقنا ولم يخلقه غيرنا .

(أَنْعَاماً) : هى الأزواج الثمانية :من الإبل اثنين الذكر والأنثى ، ومن كل من البقر والغنم والمعز اثنين كذلك .

(وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ) : جعلناها مذللة منقادة لهم .

(فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ) أى : فمنها مركوبهم ، فعول بمعنى مفعول كحلوب بمعنى مجلوب ، وهو مما لا يقاس .

التفسير

٧١ ـ (أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَاماً فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ) :

هذه الآية استئناف مسوق لإنكار عدم اتعاظهم بما يرون من خلق الله للأنعام ، وتسخيرها وخيراتها لهم ، وبيان عدم شكرهم له على ذلك بالإيمان والعمل الصالح ، مع التعجب من

هذا الكفر مع قيام الأدلة على وجوب الإيمان ، فالهمزة للإنكار والتعجيب ، والواو للعطف على جملة منفية مقدرة مستتبعة للمعطوف ،والتقدير : أغفلوا ولم يعلموا علماً يقينياً مشابهاً للرؤية البصرية .

والمقصود من قوله : « مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا » مما أحدثناه بذاتنا من غير مدخل فيه لغيرنا لاخلقا ولاكسبا ، فالكلام استعارة تمثيلية فيما ذكر ، فليس لله أيد على الحقيقة قال تعالى : « لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ » والتعبير بذلك للإيذان بعظم خلقها ومنافعها ، فإن صفة العظيم عظيمة ، ومعنى الآية : أغفلوا ولم يعلموا علماً يشبه الرؤية بالبصر أن الله خلق لأجلهم مما أحدثه بنفسه بغير شريك أنعاماً ذات خلق بديع ، ومنظر جميل ، ومنافع عديدة يحتاجون إليها فهم لها مالكون بتمليكنا ، مختصون بها لايزاحمهم فيها مزاحم .

ويجوز أن يكون المعنى : فهم للتصرف فيها مالكون ، يسخرونها ويضبطونها وينتفعون بلحومها وألبانها وأصوافها وأوبارها ، وهذا الوجه يناسب معنى الآيتين التاليتين فكأنهما شرح لملكيتهم لها ، والاقتصار على الأنعام لعظم منافعها خصوصاً للعرب الذين كانوا أول من خوطبوا بالدعوة .

٧٢ ــ (وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ) :

أى : وجعلناها لهم مذللة منقادة لما يريدونه منها ، فبعضها ركوبهم ــ أى : مركوبهم ــ كالإبل ، وبعضها يأكلون منها ، والأكل منها عام ، يتناول الأكل من ذات لحومها ، والأكل من أثمانها وأثمان ألبانها وأوبارها وأشعارها وجلودها إذا باعوها ، كما يقال : فلان يأكل من كسب يده .

وإنما قال : (وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ) ولم يقل : ومنها مأكولهم على نحو سابقتها ؛ ليفيد الاستمرار التجددى الذى يستفاد من الفعل المضارع ، فإن الأكل يتجدد على الدوام ، بخلاف الركوب فإنه فى بعض الأحيان ، ولأن بعضها هو الذى يركب ، بخلاف الأكل فإنه عام لها ، ولذا غير الأسلوب ، وقيل : إنه غُيِّر رعاية للفاصلة .

٧٣ - (وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ) :

ولهم فى الأنعام بقسميها منافع غير الركوب والأكل ، فمن جلودها تصنع الحقائب والنعال والسروج وسائر المصالح المرتبطة بها ، ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها يتخذ الناس اللباس والفراش والأثاث وسائر المتاع ، ومن عظامها يتخذ ما يُكَرَّر به الدبس ليكون سكرا أبيض ، وعلاج لين العظام بما يستخلص منها ، ومن ألبانها يشربون إلى غير ذلك من المنافع ، أيشاهدون هذه النعم فلا يشكرون الله ـ تعالى ـ الذى أنعم عليهم بها ، بأن يخصوه وحده بالعبادة؟.

(وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴿٧٥﴾ فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٦﴾)

المفردات :

(مِن دُونِ اللهِ) : من غير الله .

(جُندٌ مُّحْضَرُونَ) : جند معدون لحفظهم ، أو محضرون فى النار .

التفسير

٧٤ - (وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللهِ آلِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ) :

أى : واتخذ أولئك المشركون من غير الله القادر المنعم آلهة يعبدونها معه ـ سبحانه ـ راجين أن ينصروا بها فى دنياهم بإنقاذهم من الشدائد ، وفى أخراهم بالشفاعة لهم عند الله ، وهذا خطأ بيِّن ، فإن من لا يستطيع دفع المكروه عن نفسه ، لا يستطيع دفعه عن سواه ، ولذا قال ـ سبحانه ـ مستأنفاً ردًّا عليهم :

٧٥ - (لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ) :

أى : لا تقدر آلهة المشركين على نصرهم ، والحال أن هؤلاء المشركين جند مهيأون لحفظها ووقايتها ، فكيف يعبدونها ويستنصرون بها ؟ ! .

ويجوز أن يكون المعنى : والآلهة المزعومة جند محضرون لتعذيب المشركين يوم الدين ، إذ تكون وقودا للنار التى يعذبون بها ، أو محضرون عند حساب الكفرة إظهارًا لعجزهم ، وإقناطا للمشركين من شفاعتهم ، وكلاهما معنى جيد .

والتعبير عن الآلهة فى المعنيين الأخيرين بالجند ، وكذا ذكر اللام الدالة على المنفعة فى « لهم » للتهكم بالمشركين الذين يستنصرون بهم ، فإنهم وقود لعذابهم أو شهود عليهم ، وكلاهما مباين لما أملوه فيهم من أن يكونوا جنود نصرة ومنفعة لهم .

٧٦ - (فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ) :

هذه الآية لتسلية الرسول وتسرية الحزن عنه بسبب إشراكهم بالله ، وقولهم على الله وعلى رسوله مالا يليق ، وقد ختمت بإنذارهم على مقالتهم .

ومعنى الآية : إذا كان حالهم مع ربهم - سبحانه - ما علمته يامحمد من الإشراك ، فلا تحزن لقولهم فى الله بالإلحاد ، وفيك بالتكذيب والتهجين ، فإننا نعلم ما يسرون وما يظهرون من الجرائم فنجازيهم عليها حتى لا يستوى المحسن والمسىء ، والعلم بما ذكر مجاز أو كناية عن الجزاء عليه ، فالجزاء على الذنب من مقتضيات علم العادل الحكيم .

(أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾)

المفـردات :

(مِن نُّطْفَةٍ) : من منيٍّ ، أطلقت عليه لأنه ينطف ، أى : يصب فى الرحم ، من النطف وهو الصب .

(خَصِيمٌ مُّبِينٌ) : شديد الخصومة واضحها .

(وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا) أى :جعل لنا مثلًا ونظيرًا من الخلق .

(وَهِيَ رَمِيمٌ) : وهى بالية أشد البلى ، وهى فعيل بمعنى فاعل من رمَّ إذا بلى ، ولم يؤنث مع المؤنث لأنه ألحق بالأسماء الجامدة لغلبة استعماله دون موصوف ، وقيل : هو اسم مفعول من رممته بمعنى أبليته ، وهو إذا كان كذلك يستوى فيه المذكر والمؤنث كقتيل .

التفسـير

٧٧ - (أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ) :

بعد ما بين بطلان شركهم ، وأقام الدليل على أنه - تعالى - هو المستحق للعبادة وحده ، أتبع ذلك إقامة البرهان على أن البعث حق ردا على إنكارهم له .

والهمزة فى (أَوَلَمْ) للإنكار والتعجب ، والواو لعطف ما بعدها على جملة مقدرة أى : أغفل ولم ير الإنسان .

والمعنى : أغفل الإنسان المنكر للبعث ، ولم يعلم أنا خلقناه من نطفة حقيرة ليس بينها وبين خلقه العظيم مناسبة تذكر ، فإذا هو شديد الخصومة ، واضح الجدال ، إذ ينكر البعث مع أنه فى قضايا العقل أيسر من الابتداء ، وإن كان كلاهما فى اليسر عند الله سواء .

واعلم أن الإنسان مخلوق من منىّ الرجل ، وماء المرأة جميعًا ، فإن للمرأة ماء كماء الرجل مع فارق سنذكره بعده ، سألت امرأة النبى - صلى الله عليه وسلم - : « هل على المرأة من غسل إذا هى احتلمت ؟ » قال : « نعم إذا رأت الماء » .

وفى ماء الرجل حيوانات منوية لا تحصى لكثرتها ، ولا ترى إلّا بالمجهر لصغرها ، وفى ماء المرأة بويضة وحيدة تفرزها كل دورة طهر بعد الحيض ، فإذا التقى الرجل بالمرأة لقاء جنسيًّا

فى طهرها ، وأخرجا ماءهما عند اللقاء ، وأراد الله الحمل ، لقحت بويضة المرأة بحيوان من منى الرجل فى قناة واصلة من مبيضها إلى الرحم ، يسميها الطب الحديث « القناة الفالوبية » نسبة إلى مكتشفها ، ثم تنحدر البويضة بعد تلقيحها بأربعة أيام إلى الرحم بعد انقسامها إلى عديد من الخلايا ، فتستقر فى قرار مكين من جدار الرحم حيث تتطور إلى إنسان سوى ، فتبارك الله أحسن الخالقين . (انظر تفصيل ذلك فى مثله فى صدر سورتى الحج والمؤمنون) .

وسبب نزول هذه الآية على ما أخرجه جماعة عن ابن عباس قال : « جاء العاص بن وائل إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بعظم حائل ، ففتَّه بيده فقال : يا محمد أيجمع الله هذا بعد ما رمَّ ؟ قال : نعم يبعث الله هذا ثم يميتك ثم يحييك ثم يدخلك نار جهنم » ، فنزلت الآيات : « أَوَلَمْ يرَ الْإِنسَانُ . . . » إلى آخر السورة .

والقصة متفقة فى جميع الروايات ، وإن اختلفت فيمن خاصم الرسول ، فعن مجاهد ، والسدى ، وعكرمة وغيرهم أنه أُبَىّ بن خلف الذى قتله الرسول فى أُحد بحربة ، وقيل : هو أبو جهل ، وقيل : غيرهما .

٧٨ - (وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ) :

هذه الآية معطوفة على الجملة المنفية فى الآية قبلها ، أى : أولم ير الإنسان أنَّا خلقناه من نطفة ، ففاجأ بالخصومة وضرب لنا مثلًا .

والمعنى : وجعل لله نظيرا من الخلق ، إذ قاس قدرته على قدرتهم ، فنفى قدرته على أن يبعث الخلائق ، ونسى خلق الله له من نطفة ، إذ قال - وهو يضرب المثل لله بطريق الإنكار والنفى العام - : « مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ؟ » أى : شديدة البلى ، يريد أنه لا يستطيع أحد أن يحييها ، فأدرج المولى مع الخلائق فى هذا النفى العام ، وبهذا سواه بالخلائق فى العجز عن إعادة الحياة للعظم الرميم وجعله مثلهم ، فهذا هو معنى : « وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا » .

ومن العلماء من فسر المثل بالأمر الغريب ، والمعنى عليه : وأورد فى شأننا أمرًا غريبًا يشبه المثل فى غرابته ، وهو إنكار إحيائنا للعظم الرميم ، والمعنى السابق أظهر .

٧٩ـ (قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ . . .) الآية :

أمر من الله لرسوله أن يجيب على سؤال هذا المعاند ، مرشدًا إلى سبيل معرفة الحق .

والمعنى : قل له أيها الرسول : يحيى هذه العظام بعد أن تبلى أشد البلى ـ يحييها ـ الذى أبدعها أول مرة ورباها ، وذلك بأن يحيى الجسد كله والعظام فى جملته ، فتجرى فيها الحياة لجريانها فيه ، وتصبح صلبة مترابطة ، بعد أن كانت هشة متفتتة ، وذلك أيسر فى القياس من بدء خلقها ، فذلك من القياس الأولوى ؛ وكان الفارابى يقول : وددت لو أن أرسطو وقف على القياس الجلى فى قوله ـ تعالى ـ : « قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ » (وهو الله تعالى ، أنشأ العظام وأحياها أول مرة ، وكل من أنشأ شيئًا أولا قادر على إنشائه وإحيائه ثانيًا ، فيلزم أن الله ـ عز وجل ـ قادر على إنشائها وإحيائها بقواها ثانيًا) . إهـ .

(وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ) : وهو بكل مخلوق واسع العلم ، ولهذا يعلم من كل إنسان صفاته التى كان عليها فى الدنيا ، وتفاصيل أجزائه وأوضاعها بعضها من بعض ، فيعيد كل ذلك على النمط الذى كان عليه ، على حد قوله ـ تعالى ـ : « كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ »[1] .

٨٠ـ (الَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ) :

المراد من الشجر الأخضر على المشهور نوعان : (أحدهما) المَرْخُ ، (والثانى) العَفَار (بفتح العين) ، وإخراج النار منهما على ما قاله العلامة أبو السعود : بأن تقطع منهما عُصيَّتين مثل السواكين ، وهما خضراوان ، يقطر منهما الماء ، فيسحق المرخ وهو ذكر على العفار وهو أُنثى ، فتقدح النار بإذن الله ـ تعالى ـ وقيل : المراد من الشجر العموم ، لصلاحية كل الأشجار للاتقاد ، وفى المثَل : فى كل شجرة نار ، واستمجد المرخ والعفار ، أى : استكثرا من النار ، من مجدت الإبل إذا وقعت فى مرعى واسع كثير ، وإرادة المرخ والعفار أنسب بالمقام ، ويقول صاحب المختار : واستمجد المرخ والعفار ، أى : استكثرا منها كأنهما أخذا من النار ما هو حسبهما ، ويقال : لأنهما يسرعان الوَرْىَ ، فشُبِّهَا بمن يُكْثِر العطاء طلباً للمجد .

وأجاز بعضهم ـ جمعًا بين الرأيين ـ أن يكون المعنى : الذى جعل لكم من الشجر الأخضر نارًا بالفعل بقدح المرخ بالعفار ، فإذا أنتم من الشجر الأخضر المذكور توقدون النار فى سواه .

(١) الأعراف ، من الآية : ٢٩

ووجه الاستدلال على البعث بذلك : أن من قدر على إخراج النار من الشجر الأخضر مع ما فيه من الماء المضاد لها ، فهو أقدر على إعادة الغضاضة فيما كان غضا طريًّا فبلى ويبس .

(أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾)

المفردات :

(بَلَىٰ) : حرف يجاب به بعد النفى لتحويل النفى إلى إثبات .

(بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ) اليد : كناية عن القدرة ، والملكوت مبالغة فى الملك ، كالرحموت فى الرحمة ، والرهبوت فى الرهبة ، ومعناه : الملك التام .

التفسير

٨١ -(أَوَلَيْسَ الَّذِى خَلَقَ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ) :

هذه الآية استئناف من جهة الله -تعالى- لتأييد ما كلف الرسول بتبليغه ، وهو : « قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ » ... الآيتين . والهمزة للإنكار والنفى، والواو للعطف على مقدر يقتضيه المقام .

والمعنى : أليس الذى أنشأها أول مرة ، وليس الذى جعل لكم من الشجر الأخضر نارًا وليس الذى خلق السموات والأرض- مع كبرهما وعظم شأنهما- بقادر على أن يخلقهم ومثلهم ويبعثهم من قبورهم مع صغرهم ، وحقارة شأنهم ، بل هو قادر وهو الخلاق الكثير الخلق ، العليم الواسع العلم ، فلا يعجز عن بعثهم .

٨٢ - (إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ) :

ذهب معظم السلف إلى أن الله حين يريد أن يخلق شيئًا يصدر فى شأنه أمرًا كلاميا هو قوله : « كُن » حسب النص « فيكون » .

والمعنى على هذا الرأى : ما شأن الله تعالى ، أو ما أمره إذا أراد إيجاد شىء إلا أن يقول له : كُن فيكون ويحدث استجابة لأمر الله .

وذهب بعض المحققين إلى أنه لا قول أصلًا ، والمراد بما جاء فى الآية تمثيل قدرة الله فى تحقيق مراده بأمر الآمر المطاع للمأمور المطيع ، فى سرعة حصول المراد من غير امتناع ولا توقف ، ورجح هذا بأن الأمر الكلامى لا يوجه إلى معدوم ، بل إلى موجود .

والمعنى على هذا : ما شأنه - تعالى - إذا أراد إيجاد شىء إلا أن ينفذه فورا فى الحين الذى حدده له .

٨٣ - (فَسُبْحَانَ الَّذِى بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ) :

المعنى : إذا كان قد تحقق ما تقدم بيانه من عظيم قدرة الله -تعالى- وأنه إذا أراد شيئًا قال له : « كُنْ فَيَكُونُ » فتنزيهًا للذى فى قدرته الملك التام لكل شىء عمّا نسبوه إليه من عدم قدرته على بعث الخلائق ، وإليه ترجعون جميعًا - مؤمنين وكافرين - لا إلى غيره ، فيثيب المؤمنين ، ويعاقب المنكرين .

واعلم أن الرجوع يوم القيامة سيكون للأرواح والأجسام على الوجه الذى كانت عليه فى الدنيا ، ليكون الحساب والجزاء لهما جميعًا .

فإن قيل : إنَّ الأجساد تلاشت وتداخلت فى تكوين غيرها بعد أن عادت إلى عناصرها الأولى من تراب وهواءٍ وماءٍ ، فقد دخلت فى تكوين النبات والحيوان والإنسان ، فكيف يمكن إرجاع الأجساد بعد أن تداخلت فى تكوين غيرها .

فالجواب : أن المهم فى البعث هو الروح ، فهو المسئول الأول عن الأعمال ، وهو الذى يشعر بالنعيم والعذاب ، ولولاه لما كان تكليف ولا جزاء ، والله تعالى يخلق عند البعث جسدًا

لكل روح يشبه صاحبه تمام الشبه ، وينشئه من العدم أو من الكون على مثاله تمامًا ، ليمكن التمايز بين الناس حتى يستطيع أصحاب الظلامات تمييز غرمائهم عن غيرهم ، ولا يقال : إن الجسد الذى ينال الجزاء على هذا ليس هو الذى أطاع أو عصى ، بل غيره ؛ لأن الجزاء فى الحقيقة للروح لا للجسد ، والروح هو بعينه لم يتغير .

وقيل : يجمع الله الأجزاء المتفرقة ، ويعيدها كما كانت قبل الموت ، وينفخ فيها الروح ، والنفس تميل إلى الرأى الأول ، لما قلناه من تداخل عناصره بعد تحلله فى مخلوقات أخرى ومكلفين آخرين ، ويشير إلى الرأيين المذكورين صاحب الجوهرة بقوله :

وقل يعاد الجسم بالتحقيق عن عدم وقيل عن تفريق

سورة الصافات

مكية وآيها ثنتان وثمانون ومائة آية ، وقد نزلت بعد الانعام

مناسبتها لما قبلها

تناسب الصافات (يس) التى قبلها فى أنها مثلها فى الكلام على أحوال المؤمنين والكافرين فى الدنيا والآخرة ، والمبدأ والمعاد ، وإثبات إمكان البعث ، ووجوب توحيد الله ونبذ الشركاء إلى غير ذلك من المقاصد المتجانسة ، فلذلك كانت تالية لها .

خلاصة ما جاء فيها

أقسم الله فى صدرها بمخلوقات عظيمة وصفها بأنها صافات وزاجرات وتاليات للذكر ، على أنه ـ تعالى ـ واحد ، وأنه رب المشارق والمغارب ، وبين جمال السماء وزينتها ، وأنها محفوظة من الشياطين ، وأنهم يرجمون بالشهب إن حاولوا التسمع إلى الملأ الأعلى ـ وهم الملائكة ـ ثم أثبت إمكان البعث بقدرته ـ تعالى ـ فإنه خلق الخلق كله ، فلا تصعب عليه إعادتهم ، وذكر أنهم سيعودون بأيسر سبيل ، وذلك بأن ينفخ فى الصور نفخة واحدة فإذا هم قيام ينظرون ، ثم يحشرون ويسألون ، وأن بعضهم يلقى على البعض الآخر تهمة التسبب فى كفرهم ، وأن ذلك لاينفعهم ، فهم يومئذ فى العذاب مشتركون ؛ لأنهم « كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ : لَا إِلٰهَ إِلَّا اللهُ يَسْتَكْبِرُونَ ، وَيَقُولُونَ : أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ » وأن عباد الله على نقيضهم ، فهم فى جنات النعيم ، على سرر متقابلين ، يطوف عليهم الولدان بكئوس الشراب : (وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ * كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ) .

ثم قارنت بين هذا النعيم الذى ينعم به المؤمنون ، وبين العذاب الذى يشقى به الكافرون فهم فى نار جهنم ، وإذا طعموا يطعمون من شجر الزقوم ، ويشربون من الحميم ، ومرجعهم إلى الجحيم ، ثم ذكرت بعض القصص للأمم السابقة وما جره كفرهم عليهم من العقاب فى الدنيا ، ثم كذبت المشركين فى دعواهم أن الملائكة بنات الله ، وأن بينه وبين الجنة نسبا

ثم بينت أنه ـ تعالى ـ سبقت كلمته لعباده المرسلين ، إنهم لهم المنصورون ، وإن جنده لهم الغالبون ، وأوصت الرسول بالإعراض عنهم وعن سفاهتهم ، وختمت بتنزيه الله ـ تعالى ـ عما يصفونه به من أن له شريكا وأن له بنات ، وبالسلام على المرسلين ، والحمد لله رب العالمين .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفًّا ﴿١﴾ فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجْرًا ﴿٢﴾ فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكْرًا ﴿٣﴾ إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَٰحِدٌ ﴿٤﴾ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ ٱلْمَشَٰرِقِ ﴿٥﴾)

المفردات :

(وَالصَّآفَّاتِ) أى : وحق الملائكة الصافين أنفسهم ، وقيل غير ذلك ، وسيأتى بيانه .

(فَالزَّاجِرَاتِ) : وصف ثان للملائكة المقسم بهم ، مأخوذ من الزجر وهو المنع أو الحث أو السَّوْق .

(فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا) : وصف ثالث لهم بأنهم يتلون ذكر الله .

(الْمَشَارِقِ) هى : مشارق الشمس والكواكب على امتداد خط المشرق .

التفسير

١ـ ٤ ـ (وَالصَّآفَّاتِ صَفًّا * فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا * فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا * إِنَّ إِلَـٰهَكُمْ لَوَاحِدٌ) :

الصافات والزاجرات والتاليات أوصاف لم يذكر القرآن الكريم معها موصوفها ، وقد أقسم الله ـ تعالى ـ بها على أن إلٰهنا واحد ، وإذا كان المقسم هو الله ، والمقسم عليه وحدانيته ، فلابد أن يكون الموصوف المقسم بصفاته عظيما .

لهذا اختلف المفسرون فى الموصوف بهذه الصفات ، فقيل : هم الملائكة ، فهم يصفون أنفسهم حسب مراتبهم ومقاماتهم فى طاعة الله ، وانتظارا لأمره ، وقد جاء وصفهم بذلك فى قوله ـ تعالى ـ : « وَجَآءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا »[1] .

---

(١) سورة الفجر ، الآية : ٢٢

والزجر يطلق لغة على المنع والنهى والحث والسَّوْق ، ولا يكون الزاجر إلَّا متسلطًا ، وليس بلازم أن يصحب الزجر صياح كما فى أصل معناه ، ووصف الملائكة به لزجرهم الأَجرام العلوية والسفلية على وجه يناسب المزجور ، من سوق كما فى سوق السحاب إلى مواقع المطر ، أو حث كما فى أمر رئيسهم لمرءُوسهم ، أو نهى كما فى زجر العباد عن المعاصى بالتخويف من عواقبها ، أو منع كما فى كف الشياطين عن الإغواء واستراق السمع ، وكما أن الملائكة صافات وزاجرات ، فهم يتلون ذكر الله فيما بينهم فى جملة ما يذكرونه من معارف وتلاوات ، يعلمها الله ، كما يتلونه عندما يبلغون الأَنبياء وحْيه سبحانه .

وحمل هذه الأَوصاف على الملائكة قال به ابن عباس وابن مسعود ومجاهد وعكرمة ، وغيرهم . والملائكة ليسوا إناثًا لقوله-تعالى- : « وَجَعَلُواْ الْمَلَآئِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمٰنِ إِنَاثًا أَشَهِدُواْ خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ »[1] ووصفهم هنا بأَوصاف الإناث مراعاة لتاء التأْنيث فى لفظها ؛ ولأَن الجمع يجوز تأْنيث وصفه أَو ضميره على معنى الجماعة .

وقيل : إنه – تعالى – أَقسم بطوائف الأَجرام السماوية المرئية كالصفوف المرصوصة ، وبالأَرواح الزاجرات ، أَى : السائقات لها فى مداراتها ، حيث ترعاها وتدبر أَمرها ، والمراد بها الملائكة الموكلة بها ، وبالجواهر القدسية الذين يَتْلون ذكر الله ، وهم يسبحون الليل والنهار لا يفترون ، والمراد بها الملائكة الكروبيون ، وقيل : أَقسم بنفوس العلماء التى لها هذه الصفات الثلاثة ، وقيل : بنفوس الغزاة الصافين فى الجهاد ، والزاجرين الخيل ، أَو العدو ، التالين لذكر الله لا يشغلهم العدو عنه .

ونحن نقول : لا مانع من إرادة من يتصف بهذه الصفات فى طاعة الله ممن ذكروا ومن غيرهم ، تعظيمًا لشأْنهم ، والعطف إما لتغاير الذات أَو لتغاير الصفات ، وإن اتحدت الذات وكان العطف بالفاء للإيذان بالترتيب الوجودى أَو الشرف .

وقد يقال : ما فائدة القسم بأَن الإلٰه واحد عند المنكرين ، والجواب : أَن القسم لتعظيم المقسم به ، وتأْكيد المقسم عليه – كما هو المعروف عند العرب الذين نزل القرآن بلغتهم –

---

(١) سورة الزخرف ، الآية : ١٩ .

أما تحقيق المقسم عليه فقد تكفل به قوله ـ تعالى ـ : (رَبُّ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ) كما سنبينه بعد .

٥ ـ (رَبُّ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ) :

أفادت هذه الآية أنه ـ تعالى ـ خالق السَّمٰوات والأرض وما بينهما ورب مشارق الكواكب ، وهذه دعوى تحمل فى أعطافها الدليل عليها ، فإن وجود السموات والأرض فى الفضاء محفوظة من التلف مصونة من العيب ، مع أداء كل كوكب ونجم وظيفته نحو غيره من الكواكب ونحو نفسه ، مع عظمتها فى نفسها ، وعظمتها فى أغراضها ، وضرورة كل ذرة فيها لتحقيق أغراضها ، وانطواء كل ذرة على أسرار عظيمة ، كما كشفت عنه الكشوف المعاصرة ، كل ذلك وغيره من أسرار السموات والأرض ، يدل أوضح الدلالة على وحدة تدبيرها ، ووحدة مدبرها ومنشئها ، إذ « لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا » والمشركون يقرون بذلك : « وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ » وحيث انتهى التفكير فى هذا الكون العجيب إلى أن منشئه واحد ، ومدبره والقائم على حفظه وأداء وظائفه واحد ، فإن ذلك يستتبع أن إلٰهنا الذى يجب أن نتجه بعبادتنا إليه واحد ، وهذا هو جواب القسم السابق : « إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَاحِدٌ » .

وكثيرًا ما تتعرض الآيات القرآنية إلى ما بين السموات والأرض كشاهد على وجود الله وربوبيته ووحدانيته كما هنا ، ولابد أنه شىء عظيم حتى يجعل القرآن الكريم له هذه الأهمية فى عديد من الآيات ، وقد كشف الناس منه الأشعة الكونية والجاذبية ، والأجرام الكثيرة الدائرة بسرعة رهيبة فى الفضاء ، والشهب والسحب والرعد والبرق والأمطار والرياح ، وغير ذلك مما عرف ، أمَّا ما لم يعرف فلا ريب فى أنه شىء عظيم ، فسبحان من خلق ودبر ، واحتجب عن العيون ذاته ، وأظهرته آياته .

(إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ ﴿٦﴾ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ ﴿٧﴾ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ﴿٨﴾ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴿٩﴾ إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴿١٠﴾)

المفردات :

(السَّمَاءَ الدُّنْيَا) : السماء القربى .

(شَيْطَانٍ مَّارِدٍ) : خارج عن الطاعة .

(دُحُورًا) الدحور : الطرد .

(عَذَابٌ وَاصِبٌ) : عذاب دائم أو شديد .

(إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ) : إلّا من اختلس من كلام الملائكة اختلاسة .

(فَأَتْبَعَهُ) أى : تبعه ، فهو رباعى بمعنى الثلاثى ويتعدى مثله .

(شِهَابٌ) : هو ما يرى مضيئًا مارقًا بسرعة فى الجو كأنه كوكب ساقط .

(ثَاقِبٌ) : مضىء .

التفسير

٦ -(إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ) :

السماء لغة : كل ما علاك ، ولهذا تطلق على السحاب كما فى قوله -تعالى- : « وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا »[1] والمراد هنا ما جعل الله الكواكب زينة لها ، ولابد أن تكون شيئًا آخر غير الكواكب ، فإن الزينة شىء وما تزينه شىء آخر ، ولأن النبى -صلى الله عليه وسلم-

(١) سورة (ق) من الآية : ٩

كان يستفتح ليلة الإسراء والمعـــراج ، وكان استفتاحه على السموات لاعلى الكواكب ، ولأن الكواكب لاحصر لها ، وتتجاوز الأرقام الحسابية التى عرفها البشر ، كما أن طبقاتها لاحصر لها أيضًا ، فهى مجاميع سُدُمية[١] ، لا يبلغها الحساب ، وطبقاتها لا يبلغها العدد ، وليست سبع طبقات ، والله تعالى يقول : « الَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمٰوَاتٍ طِبَاقًا »[٢] .

والقبة الزرقاء التى تراها العيون ليست هى السماء التى جعلت الكواكب زينة لها ، فهى الغلاف الجوى المحيط بالأرض ، فإذا تجاوزه فلا يراه ، وهذا أمر تحقق علميًا وكشفيًا .

وعلى هذا تكون السموات السبع التى جعلت الكواكب زينة لها غير مرئية ولا معروفة لنا ، ولكننا نرى الكواكب التى جعلها الله زينة للسماء الدنيا أى : القربى من أهل الأرض ، وهى أول السموات السبع ، فسبحان من لا يعلم سواه عظمته وعظمة الكون الذى أبدعه .

وهذا التفسير هو الذى يساعد عليه ظاهر النص ، ومن العلماء من جعل السموات هى نفس الكواكب وما حولها من أجوائها والأشعة الكونية ، وقد انقسموا قسمين : فمنهم من يقول : إنها سبع طبقات كوكبية فعلًا ، ومنهم من يقول : إن العدد لا مفهوم له سوى التكثير ، فإن العرب تستعمل عدد السبع مفردًا أو جمعًا ، كالسبعين لغرض التكثير ، ويقولون : إنها طبقات كثيرة لا تقف عند عدد السبع

ونحن نقول لهؤلاء : إذا كانت السموات مجموعات من طبقات الكواكب ، فلماذا جعلت الكواكب زينة للسماء الدنيا وحدها كما فى هذه الآية وفى آية سورة الملك ، وكيف تكون زينة لنفسها ، والزينة شىء وما تزينه شىء آخر ، وكيف يستفتح الرسول – صلى الله عليه وسلم – ليلة المعراج على كواكب ، ثم نقول : علينا أن نؤمن بأن لله سموات سبعًا ، وأن الكواكب زينة للسماء الدنيا منها ، ونترك العلم بحقيقة ذلك إلى الخالق – جل وعلا – .

والكواكب هى تلك الأجرام المتلألئة التى نشاهدها فى الفضاء ليلًا ، ومنها القمر أقربها إلى الأرض ، وقد وصل الإنسان فى عصرنا هذا إلى القمر داخل أجهزة علمية ، وقد حصل

(١) سدم : جمع سديم وهو مجموعة من الكواكب لا حصر لها .

(٢) سورة الملك ، من الآية : ٣

العلماء على معلومات عنه أكثر وضوحا من ذى قبل ، ومنها أن عناصر تكوينه تشابه عناصر تكوين الأرض ، وأن جوه لا يصلح لحياة الإنسان فوقه .

٧ - (وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ) :

وحفظنا السماء حفظًا بتلك الكواكب من كل عفريت من الجن شرير متمرد خارج عن الطاعة ، حيث تنزل منها الشهب فتحرق من يحاول استراق السمع فى جو السماء من أولئك الشياطين المتمردين .

٨ - (لَا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ) :

الملأُ الأعلى : الملائكة أو رؤساؤهم ، والمعنى : لا يتمكن مردة الشياطين أن يتسمعوا ، ويصغوا إلى الملائكة وهم يتحدثون فيما عهد الله به إليهم من شئون الخلائق ، فقد حفظت السماء منهم بشهب أصلها من الكواكب ، فإن حاولوا الاستماع يقذفون بها من كل جانب من جوانب السماء .

٩ - (دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ) :

الدُّحُور : الطرد ، والواصب : الدائم أو الشديد كما تقدم فى المفردات .

والمعنى : ويقذف أولئك الشياطين بالشهب من كل جانب لأجل دحرهم عن مجتمع الملائكة فى جو السماء ، وهم يتحدثون فيما عهد الله به إليهم . ولأولئك الشياطين عذابٌ شديد دائم فى الآخرة ، غير عذاب الإحراق بالشهب فى الدنيا .

١٠ - (إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ) :

أى : لا يتسمع أولئك الشياطين إلى الملأ الأعلى ، إلَّا من اختلس منهم كلام الملائكة مسارقة ، فتبعه شهاب ثاقب ، أى : شعلة قوية الضوء والحرارة فتحرقه .

والشهاب : واحد الشهب ، وهى أحجار صغيرة منفصلة عن الكواكب ، سابحة فى فضاء الله - تعالى - فإذا وصلت فى دورانها إلى جاذبية الأرض جذبتها ، فمرت بسرعة متجهة

نحوها ، فمن سرعتها تحترق بقوة احتكاكها المتتابع السريع بالهواء ، ويكون لاحتراقها لمعان مستطيل . ثاقب : أى ساطع .

(فَٱسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَآ ۚ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ ﴿١١﴾ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ذُكِّرُوا۟ لَا يَذْكُرُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا رَأَوْا۟ ءَايَةً يَسْتَسْخِرُونَ ﴿١٤﴾ وَقَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿١٦﴾ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿١٧﴾)

المفردات :

(فَاسْتَفْتِهِمْ) : فاستخبرهم .

(طِينٍ لَّازِبٍ) : طين لاصق .

(يَسْتَسْخِرُونَ) : يبالغون فى السخرية .

التفسير

١١ - (فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَم مَّنْ خَلَقْنَآ إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ) :

المعنى : فاستخبر يا محمد مشركى مكة المنكرين للبعث ، أهم أصعب خلقاً وإيجادًا ، أو أقوى خلقة وبنياناً ، أم من خلقناه من السموات وما فيها من الملائكة والكواكب وروائع العجائب ، والأرض وما فيها من جبال وتلال ، ونجاد ووهاد ، وزروع نضرة ، وزهور عطرة ، وجماد وحيوان ، وماء وحيتان ، ومابين الأرض والسماء من الرياح اللواقح ، والشهب الثواقب ، وغير ذلك من عجائب مبدعاته ، وروائع مخلوقاته ، إنا خلقنا بنى آدم من طين لاصق بعضه ببعض ، فى ضمن خلق أبيهم آدم ، أو خلقناهم أنفسهم من الطين ، فإن أصلهم النطفة ، والنطفة أصلها غذاء مخلوق من الطين ، فهم باعتبار هذا التسلسل مخلوقون من الطين .

وإذا كانوا مخلوقين من الطين على أى وجه ، فكيف يستبعدون بعثهم من التراب ، إذ قالوا : « أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ »[1] مع أنهم خلقوا فى أول أمرهم من تراب ممزوج بالماء فصار طيناً .

١٢ - (بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ) :

بل : هنا لابتداء كلام آخر ، كما قاله صاحب المغنى فى قوله - تعالى - : « بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا »[2] وليست للعطف ، نقله الخطيب معلقاً على البيضاوى ، والخطاب للرسول وكل من يدافع عن الحق .

والمعنى : بل عجبت يا منصف الحق من قدرة الله على ماخلقه من الكائنات العلوية أو السفلية ، ومع هذا ينكر الكافرون البعث ، ويسخرون من تعجبك وتقريرك للبعث .

١٣ - (وَإِذَا ذُكِّرُواْ لَا يَذْكُرُونَ) :

وإذا وعظوا ليؤمنوا بالبعث لا يتعظون ، لقساوة قلوبهم ، وقلة فطنتهم .

١٤ - (وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ) :

السين والتاء فى « يستسخرون » للمبالغة ، والمعنى : وإذا شاهدوا معجزة تدل على صدق من يعظهم ويدعوهم إلى ترك ماهم عليه ، يبالغون فى السخرية ، ويجوز أن تكون السين والتاء للطلب ، أى : يطلب بعضهم من بعض أن يسخروا .

١٥ - (وَقَالُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ) :

أى : وقالوا فى شأن الآية التى رأوها : ما هذا الذى نراه إلَّا سحر واضح .

١٦ ، ١٧ - (أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ * أَوَ آبَآؤُنَا الْأَوَّلُونَ) :

أى : أنبعث نحن وآباؤنا الأولون إذا متنا جميعًا ، وتحولت أجسادنا إلى تراب وعظام ؟ يقولون ذلك منكرين نافين للبعث ، والهمزة فى « أئذا » وفى « أئنا » للإنكار والنفى .

---

(١) سورة المؤمنون من الآية : ٨٢

(٢) سورة الأعلى ، الآية : ١٦

(قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَٰخِرُونَ ﴿١٨﴾ فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُواْ يَٰوَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿٢٠﴾ هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢١﴾)

المفردات :

(دَاخِرُونَ) : صاغرون .

(زَجْرَةٌ) : صَيْحَةٌ .

(يَنظُرُونَ) : يبصرون ، أو ينتظرون .

(يَاوَيْلَنَا) : يا هلاكنا .

(يَوْمُ الدِّينِ) : يوم الجزاء ، تقول : دِنْتُه ، أى : جازيته .

(يَوْمُ الْفَصْلِ) : يوم القضاء بعد البعث .

التفسير

١٨ - (قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَاخِرُونَ) :

قل - يامحمد لمنكرى البعث - : نعم تبعثون أنتم وآباؤكم الأولون الذين ماتوا قبلكم ، والحال أنكم جميعًا صاغرون أذلاء ، غير معجزين لقدرة الله - تعالى - .

وقد اكتفى هنا فى إجابة منكرى البعث بذلك من غير إقامة الدليل على إمكانه لأنه سبق قريبا ، ولأنه تكرر فى القرآن فى مواضع شتى .

١٩ - (فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ) :

الزجرة : الصيحة ، من : زجر غنمه : إذا صاح بها .

والمعنى : لاتستصعبوا البعث من القبور ، فما هو إلا صيحة واحدة ، وهى النفخة الثانية فى الصور فإذا هم قائمون من مراقدهم أحياء ينظرون بأبصارهم ، أو ينتظرون مايفعل بهم .

٢٠ ، ٢١ - (وَقَالُواْ يَاوَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الدِّينِ * هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِى كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ) :

الدِّين : الجزاء ، تقول : أدانه القاضى ، أى : جازاه ، والفصل : القضاء والحكم ، ففيه فصل ، أى : فرق بين المحق والمبطل .

والمعنى : وقال المنكرون للبعث حين بعثوا وتذكروا ماكانت الرسل تقول لهم فى الدنيا عن هذا اليوم : هذا يوم الجزاء من الله لعباده ، ويقول بعضهم لبعض : هذا يوم القضاء والحكم فى نزاعنا مع رسل الله فى شأن البعث وغيره مما جاءونا به ، هذا هو اليوم الذى كنتم به تكذبون ، فما أشقانا فيه وقد كذبناهم ، ويجوز أن يكون قوله تعالى : «هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِى كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ» حكاية لكلام الملائكة للمنكرين للبعث لما بعثوا وقالوا : «يَاوَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الدِّينِ» وليس من كلام بعض المنكرين لبعض .

وكان أبو حاتم يقف على قولهم : «ياويلنا» ويجعل مابعده من كلام الملائكة جوابا للمنكرين وتوبيخا لهم وإيذانا بأن وَلْوَلَتَهم وتندمهم لاينفعانهم .

* (ٱحْشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُواْ يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴿٢٤﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾ بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴿٢٦﴾)

المفردات :

(ٱحْشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزْوَاجَهُمْ) أى : اجمعوا الظالمين وأمثالهم من أصحاب المعاصى .

(وَمَا كَانُواْ يَعْبُدُونَ * مِن دُونِ اللهِ) : من الأصنام والأوثان ، فإنها تحشر معهم .

(فَاهْدُوهُم إِلَى صِرَاطِ الجَحِيمِ) أى : فدلوهم ووجهوهم إلى طريق النار .

(مَالَكُمْ لَاتَنَاصَرُونَ) أى : لماذا لاينصر بعضكم بعضا .

(مُسْتَسْلِمُونَ) : منقادون ، أو قد أسلم بعضهم بعضا وخذله عن عجز ، وأصل الاستسلام : طلب السلامة ، والانقياد تابع لذلك عرفا .

التفسير

٢٢ ، ٢٣ - (احْشُرُواْ الَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُواْ يَعْبُدُونَ * مِن دُونِ اللهِ فَاهْدُوهُم إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ) :

خطاب من الله للملائكة ، أو من الملائكة بعضهم لبعض . وعن ابن عباس - رضى الله عنهما - تقول الملائكة للزبانية :

(احشُرُواْ الَّذِينَ ظَلَمُواْ . . .) الآية ويراد بالظلم : الشرك ؛ قال تعالى : (إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ) : وهو أمر بحشر الظالمين يوم البعث من أماكنهم المختلفة إلى موقف الحساب ، وقيل : من الموقف إلى الجحيم ، يحشرون هم وأمثالهم ونظراؤهم من الكفار ، فيحشر الكافر مع الكافر . قاله قتادة وأبو العالية . وقال عمر بن الخطاب فى معنى الآية : أزواجهم أمثالهم الذين هم مثلهم . يحشر الزانى مع الزانى ، وشارب الخمر مع شارب الخمر ، وصاحب السرقة مع صاحب السرقة . وقيل فى رواية عن ابن عباس : وأزواجهم أى : نساؤهم الموافقات على الكفر ، ورجحه الرُّمَّانى ، وقيل : مع قرنائهم من الشياطين ، وروى عن الضحاك وهو قول مقاتل - أيضا - : فيحشر كل كافر مع شيطانه فى سلسلة ، كما يحشرون مع مايعبدون من دون الله من الأصنام والأوثان ونحـوها مما لايعقل ؛ لأن الحديث عن المشركين عبدة ذلك . وحشرهم معها لزيادة التحسير والتخجيل .

(فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ) أى : فعرفوهم طريق النار ، ودلوهم عليه ، والجحيم : طبقة من طبقاتها شديدة الاشتعال . والتعبير بالهداية للتهكم .

٢٤ـ (وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ) :

أى :احبسوهم فى الموقف إنهم مسئولون عن شركهم وخطاياهم، وهذا الحبس يكون للحساب قبل السوق إلى الجحيم وبعده يساقون إلى النار ، ونص الآية يؤذن بأن هذا الموقف ليس للعفو عنهم ولا ليستريحوا بتأخير العذاب ، بل ليسألوا عن أعمالهم وأقوالهم وأفعالهم .

وظاهر الآية : أن الحبس للسؤال بعد هدايتهم إلى طريق الجحيم ، بمعنى تعريفهم إياه ، ودلالتهم عليه ، لابمعنى إدخالهم فيه.

٢٥ـ (مَالَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ) :

المعنى :يقال لهم ـعلى جهة التقريع والتوبيخ ـ : مالكم لاينصر بعضكم بعضا فيمنعه من عذاب الله كما كنتم تزعمون فى الدنيا .

وقيل : هذه الآية إشارة إلى قول أبى جهل يوم بدر : نحن جميع منتصر .

والسؤال عن هذا فى موقف المحاسبة بعد استيفاء حسابهم ، والأمر بهدايتهم إلى الجحيم كما قيل : وتأخير السؤال إلى هذا الوقت ؛ لأنه وقت تنجيز العذاب ، وشدة الحاجة إلى النصرة ، وحالة انقطاع الرجاء عنها بالكلية ، والتوبيخ والتقريع حينئذ أشد وقعا وتأثيرا . والخطاب لهم ولآلهتهم أوْلهم فحسب .

٢٦ ـ (بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ) أى : منقادون ، وقال قتادة : مستسلمون لعذاب الله ـ عز وجل ـ بمعنى أن كلهم مستسلم غير منتصر .

(وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٧﴾ قَالُوٓاْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٨﴾ قَالُواْ بَل لَّمْ تَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٩﴾ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ ﴿٣٠﴾ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآ ۖ إِنَّا لَذَآئِقُونَ ﴿٣١﴾ فَأَغْوَيْنَٰكُمْ إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ ﴿٣٢﴾ فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾)

المفردات :

(يَتَسَآءَلُونَ) : يتخاصمون بطريق الجدال .

(تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ) أى : تمنعوننا بقوة وغلبة وقهر ، أو تأتوننا من جهة الخير فتنهوننا عنه ، وتمنعوننا منه ــ قاله قتادة .

(مِّن سُلْطَانٍ) أى : من حجة فى ترك الحق .

(قَوْماً طَٰغِينَ) أى : مجاوزين الحد فى الضلال .

(فَأَغْوَيْنَاكُمْ) أى : زينا لكم ماكنتم عليه من الكفر .

(غَاوِينَ) : بالوسوسة لكم . (بِالْمُجْرِمِينَ) : بالمشركين .

التفسير

٢٧ ــ (وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ) :

المعنى : وأقبل الرؤساء المُضِلُّون والأَتباع المُضَلُّون . أو الكفرة من الإنس وقرناؤُهم

من الجن -أقبلوا- يتخاصمون ، أى : يسأل بعضهم بعضا بطريق الخصومة والجدال ، ويوبخه فى أنه أضله وفتح له بابا واسعا من المعصية .

٢٨ - (قَالُوٓاْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ) :

استئناف بيانى ، كأنه قيل : كيف يتساءلون ؟ فقيل : قالوا - أى الأتباع للرؤساء أو الكل للقرناء - : «إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ» .

والمعنى : إنكم كنتم تأتوننا فى الدنيا عن اليمين ، أى : عن اليمن والخير ، وتزعمون لنا أن ماأنتم عليه خيرٌ ودين حق ، فترغبوننا فيه ، وتهونون علينا أمر شريعة الحق ، وتنفروننا منها ، فتبعناكم فهلكنا ، ولشرف اليمين جاهلية وإسلاما ، دنيا وأخرى ، استعيرت لجهة الخير .

أو : تأتوننا عن اليمين بمعنى القوة والقهر ، واليمين تستعمل مجازاً عن القوة ؛ لأن بها يقع البطش ، أى : إنكم تحملوننا على الضلال وتقسروننا عليه .

أو : تأتوننا عن اليمين بمعنى الحلف . بمعنى أنهم كانوا يوالونهم مقسمين عليهم بأن ماهم عليه من الكفر هو الحق الذى يجب اتباعه .

٢٩ - (قَالُواْ بَل لَّمْ تَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ) :

استئناف . أى : قال الرؤساء أو القرناء - فى جوابهم بطريق الإضراب - : بل أبيتم أنتم الإيمان وأعرضتم عنه ، فأنتم لم تكونوا مستعدين للإيمان ، حيث أعرضتم عنه مع تمكنكم منه ، مختارين غير ملجئين . وآثرتم عليه الكفر : فلم تكونوا قابلين للإيمان قط حتى ننقلكم من استعدادكم للإيمان إلى الكفر بل كنتم على الكفر فأقمتم عليه متمسكين به للإلف والعادة .

٣٠ - (وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ) :

أى : وما كان لنا عليكم من قهر وتسلط ، أو حجة على ترك الحق نسلبكم بهما اختياركم ، وتمكنكم من الإيمان ، بل كنتم وفق طبيعتكم قوما مجاوزين الحد فى العصيان ،

مختارين له ، مصرين عليه دون إجبار ، وإنما دعوناكم إلى الضلال فأجبتم لموافقة هواكم لما دعيتم إليه .

٣١ـ (فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآ إِنَّا لَذَآئِقُونَ) :

ذلك ـ أيضا ـ من قول المتبوعين ، وهو تفريع على ماتقدم من عدم إيمان المتخاصمين ، وكونهم قوما طاغين فى حد ذاتهم . أى : وجب علينا وعليكم قول ربنا : (لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ) فكلنا ذائقو العذاب الذى ورد به الوعيد .

فكأنهم قالوا : ولأجل أننا جميعا لم نكن مؤمنين ، وكنا قوما طاغين ، وثبت علينا وعيد ربنا بأنا ذائقون لامحالة لعذابه ـ عز وجل ـ .

٣٢ـ (فَأَغْوَيْنَٰكُمْ إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ) :

أى : فدعوناكم إلى الغواية ، وزينا لكم ماكنتم عليه من الكفر ، فاستجبتم لنا باختياركم واستحبابكم الغى على الرشد .

(إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ) جملة مستأنفة لتعليل ماقبلها ، أى : إنما أغويناكم لتكونوا مثلنا فى الغواية ـ والمراد الكفر ـ وهذا كقولهم : « رَبَّنَا هَٰؤُلَآءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا [1] » .

٣٣ـ (فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِى الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ) :

المعنى : أن الفريقين المتسائلين ـ المضِل والمضَل ـ يوم إذ يتساءلون . وهو يوم القيامة هم فى العذاب الذى استحقوه مشتركون . كما كانوا مشتركين فى الكفر والغواية ، واستظهر أن المغوين أشد عذابا لإغوائهم لغيرهم مع ضلالهم ، فالشركة لاتقتضى المساواة .

(١) سورة القصص ، من الآية : ٦٣

٣٤ـ (إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ) :

أى : إنا مثل ذلك الفعل الدال على الحكمة التشريعية نفعل بأُولئك المتناهين فى الإجرام وهم المشركون فى عهد الإسلام كما يشير إليه التعليل بقوله ـ تعالى ـ :

٣٥ـ (إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا اللهُ يَسْتَكْبِرُونَ) :

أى : إنا مثلَ ذلك العذاب نفعل بالمشركين المتخاصمين من أُمتك يا محمد؛ لأنهم كانوا إذا قيل لهم : لا إلٰه إلا الله ـ بطريق الدعوة والتلقين ـ يستكبرون عن القبول ، ومن ذلك ماروى أن النبي ﷺ لما قال لأَبى طالب ـ عند موته ـ واجتماع قريش حوله : قولوا : لا إلٰه إلا الله تملكوا بها العرب ، وتدين لكم العجم ، أَبَوا وأَنِفُوا من ذلك . وقال أَبو هريرة عن النبي ﷺ أنزل الله فى كتابه . فذكر قوما استكبروا . فقال : إنهم كانوا إذا قيل لهم : لا إلٰه إلا الله يستكبرون . وقد استكبر عنها المشركون يوم الحديبية ، يوم كاتبهم رسول الله ﷺ على قضية المدة ، ذكر هذا الخبر البيهقىّ . والذى قبله القشيرى [١] .

(وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ ﴿٣٦﴾ بَلْ جَآءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣٧﴾ إِنَّكُمْ لَذَآئِقُواْ الْعَذَابِ الْأَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾)

المفردات :

(لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ) : يعنون محمدا ﷺ وقد كذبوا ، فما هو بشاعر ولا مجنون .

(بَلْ جَآءَ بِالْحَقِّ) : جاء بالتوحيد .

(إِلَّا عِبَادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ) : الذين أخلصهم الله لطاعته .

(١) تفسير الإمام القرطبى .

التفسير

٣٦ - (وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ) :

يعنون بذلك - قبحهم الله - النبي ﷺ . وقد جمعوا بين إنكار الوحدانية وجحد الرسالة . أي : أنحن تاركو عبادة آلهتنا وآلهة آبائنا لقول شاعر مجنون ؟ والاستفهام للاستبعاد ، فرد الله - عز وجل - عليهم بقوله :

٣٧ - (بَلْ جَآءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ) :

تكذيبًا لهم ، ببيان أن ما جاء به رسول الله ﷺ من التوحيد هـو الحق الذى قام عليه البرهان ، وأجمع عليه كافة الرسل - عليهم الصـلاة والسلام ، وصدقهم ﷺ فيما أخبروا عن الله من الصفات الحميدة ، والمناهج السديدة ، وأخبر - عليه الصلاة والسلام - فى شرعه وأمره كما أخبروا قال الله - سبحانه - : « مَايُقَالُ لَكَ إِلَّا مَاقَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ[1] » .

٣٨ - (إِنَّكُمْ لَذَآئِقُواْ الْعَذَابِ الْأَلِيمِ) :

المعنى : إنكم لذائقو العذاب المؤلم بما كان منكم من الإشراك وتكذيب الرسل والاستكبار ، والالتفات إلى الخطاب لإظهار كمال الغضب عليهم بمشافهتهم بهذا الوعيد وعدم الاكتراث بهم وهو اللائق بالمستكبرين .

٣٩ - (وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَاكُنتُمْ تَعْمَلُونَ) :

أي : وما تجزون إلا بما عملتم من الضلال والشرك ، لايزاد عليه ولاينقص منه ، والآية تشير إلى أن ذوقهم العذاب ليس إلا من جهتهم لامن جهة غيرهم أصلا .

٤٠ - (إِلَّا عِبَادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ) :

أي : إنكم أيها المجرمون لذائقو العذاب الأليم . لكن عباد الله المخلصين الذين أخلصهم الله لطاعته لايذوقون العذاب ولا يناقشون الحساب ، وإنما يجزون بالثواب أضعافا مضاعفة

(١) سورة فصلت من الآية : ٤٣

بالنسبة لأعمالهم ، فيجزون الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف ، إلى ماشاء الله من التضعيف ، ويراد بهم على قراءة المخلصين ـ بكسر اللام ـ عباد الله الذين أخلصوا له العبادة .

(أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤١﴾ فَوَٰكِهُ ۖ وَهُم مُّكْرَمُونَ ﴿٤٢﴾ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٤٣﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٤﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿٤٥﴾ بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٤٦﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ ﴿٤٨﴾ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴿٤٩﴾)

المفردات :

(رِزْقٌ مَّعْلُومٌ) أي : عطية معلومة الخصائص .

(عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ) أي : لا ينظر بعضهم فى قفا بعض . وإنما ينظر فى وجهه تواصلا وتحاببا .

(بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ) أي : بخمر من نهر ظاهر للعيون .

(لَا فِيهَا غَوْلٌ) : لاتغتال عقولهم وصحتهم .

(وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ) أي : ولا هم بسببها يسكرون . يقال : نُزِفَ الرجلُ ينزَف فهو منزوف ونزيف: إذا سكر .

(قَٰصِرَٰتُ الطَّرْفِ عِينٌ) أي : يقصرن أبصارهن على أزواجهن فــلا ينظرن إلى غيرهم . وعين : جمع عيناء ،وهى شديدة بياض العين شديدة سوادها . وقال السُّدىُّ ومجاهد : «عين » : حسان العيون .

(كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ) أى : بيض مصون عن الريح والغبار حيث تكنُّه النعامة أو الفرخة بريشها .

التفسير

٤١ - (أُوْلَـٰئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ) أى : لهم رزق معلوم الخصائص ككونه غير مقطوع ولا ممنوع عن النظر ، لذيذ الطعم طيب الرائحة إلى غير ذلك من الصفات المرغوبة ، أو معلوم الوقت لقوله - تعالى - : « وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا » .

٤٢ - ٤٤ - (فَوَاكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ * فِى جَنَّاتِ النَّعِيمِ * عَلَى سُرُرٍ مُّتَقَـٰبِلِينَ) أى : إن الرزق المعلوم مع تميزه بخصائصه - كله فواكه - والمراد بها : ما يؤكل لمجرد التلذذ دون الاقتيات وجميع ما يأكله أهل الجنة كذلك حتى اللحم ، لكونهم مستغنين عن القوت ، لأن خِلْقَتَهُم محكمة محفوظة من التحلل المحوج إلى البدل ، والمراد بالفواكه : الثمار كلها رطبها ويابسها : قاله ابن عباس ، (وَهُم مُّكْرَمُونَ) عند الله - عز وجل - برفع الدرجات وسماع كلامه لا يلحقهم هوان ، وذلك أعظم المثوبات وأليقها بأولى الهمم ، وهل فى هذا إشارة إلى النعيم الروحانى بعد النعيم الجسمانى الذى يأتى به الأكل .

وقيل : مكرمون فى نيل رزقهم حيث يصل إليهم بغير تعب وسؤال ، بخلاف رزق الدنيا ، ورزقهم هذا (فِى جَنَّاتِ النَّعِيمِ) وإضافة الجنات إلى النعيم على معنى لام الاختصاص المفيدة للحصر ، أى : فى جنات ليس فيها إلا النعيم ، وهم على سرر يقابل بعضهم بعضا للاستئناس والمحادثة ، والأسرة تدور بهم كيف شاءوا تواصلا وتحاببا بالنظر إلى الوجوه .

٤٥ - ٤٧ - (يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ * بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ * لاَ فِيهَا غَوْلٌ وَلاَ هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ) :

استئناف لبيان ما يكون فى مجالس أنسهم من شرابهم بعد ذكر مطاعمهم ، والكأس فى اللغة : الإناء وفيه شرابه ، فإن كان فارغاً يقال : إناءٌ أو قدح ، وتطلق - أيضاً - على

الخمر مجازا ، وهو المراد هنا ، والمعين : الماء الجارى الظاهر للعيون ، وكذلك تجرى الخمر فى الجنة كما قال ـ تعالى ـ : (وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ) .

ولم تعين هذه الآية من يطوف عليهم بالكأس ، وقد بين الله الطائفين فى قوله تعالى : (يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ) وقوله : (وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ) كما بينت السنة الصحيحة : أن أطفال المشركين ممن يطوف على أهل الجنة ، لخدمتهم .

وقد وصفت بأنها بيضاء ، وبأنها لذة لشاربيها ، ولتمام لذتها وصفت بها فكأنها نفس اللذة وعينها مبالغة .

وهى لاغائلة فيها ، فلا تؤثر فى شاربيها باغتيال عقولهم كما فى خمر الدنيا ، من غاله يغوله : إذا أفسده وأهلكه . والمراد هنا : نفى أن يكون فيها ضرر أصلا (وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ) أى : يسكرون ، كما روى عن ابن عباس وغيره ، من نُزِف[1] الشارب إذا سكر ، ويقال للسكران : نزيف ومنزوف ، وعدى الفعل بعن بمعنى باء السببية ،أى : ولاهم بسببها يسكرون ،وأفرد هذا الفساد بالنفى مع اندراجه فيما قبله من نفى الغَوْل عنها ، لأنه من عظم فساده كأنه جنس برأسه ، وصرْفُ الله السُّكرعن أهل الجنة ، لئلا ينقطع الالتذاذ عنهم .

٤٨ ، ٤٩ ـ (وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ . كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ) : المعنى : وعندهم نساء عفيفات قد قصرن طرفهن على أزواجهن ، فلا ينظرن إلى غيرهم : قاله ابن عباس ، ومجاهد ، ومحمد بن كعب وغيرهم ، كناية عن فرط محبتهن لأزواجهن ، وعدم ميلهن إلى سواهم . وقيل : المعنى : ذابلات الجفن مِراضُه ، وما أجمل ذبول الأجفان فى النساء وقد كثر التغزل بذلك قديماً وحديثاً ومنه قول ابن الأزدى :

مَرِضَت سَلْوَتِى وَصَحَّ غرامى   من لحاظ هُنَّ المِراضُ الصحاح

ويجوز أن يكون المعنى : قاصرات طرف أزواجهن عن التجاوز إلى سواهن لغاية حسنهن وهن « عين » جمع عيناء ، وهى : الواسعة العين فى جمال . وقال الحسن : العين : الشديدات بياض العين الشديدات سوادها ، ولصونهن من كل أذى شبههن بالبيض المكنون ، وحمله الجمهور

(١) بضم النون وكسر الزاى — على صيغة المبنى للمجهول .

على بيض النعام ؛ لأنه أجمل أنواع البيض لوناً وفيه صفرة قليلة تُحَب فى النساء . ومعنى أنه بيض مكنون : أن النعام تكنه بريشها من الريح والغبار . وقيل المكنون : المصون عن الكسر ، أى : أنهن عذارى . وقيل : المراد بالبيض اللؤلؤ كقوله تعالى : « وَحُورٌ عِينٌ * كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ »[1] أى المصون : فى أصدافه قاله ابن عباس ، إلى غير ذلك من أقوال وكلها تدور حول الإشادة بحسنهن .

(فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٥٠﴾ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾ فَاطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ قَالَ تَاللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٥٩﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٦٠﴾ لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ ﴿٦١﴾)

المفردات :

(فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ) : يتفاوضون فيما بينهم بأحاديثهم فى الدنيا وهو من تمام الأنس فى الجنة .

(كَانَ لِي قَرِينٌ) أى صديق : ملازم .

(أَءِنَّا لَمَدِينُونَ) : مجزيون محاسبون بعد الموت .

(فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ) : فى وسطها ، وسمى الوسط سواء لاستواء المسافة منه إلى الجوانب

(١) سورة الواقعة ، الآيتان : ٢٢ ، ٢٣

(إن كِدتَّ لَتُرْدِينِ) أى : لتهلكنى إن أطعتك ، والردى : الهلاك .

(لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ) أى : لكنت مثلك من المحضرين إلى سواء الجحيم حيث أنت .

التفسير

٥٠ - (فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ) :

معطوف على « يُطَافُ عَلَيْهِمْ » أى : يطاف عليهم بالشراب ، فيقبل بعضهم على بعض ، يتساءلون عن الفضائل والمعارف وعما جرى لهم وعليهم فى الدنيا ، وما أحلى تذكر ما فات عند رفاهية الحال وخلو البال .

٥١ - (قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّى كَانَ لِى قَرِينٌ) أى : قالَ قائل مِن أهل الجنة فى تضاعيف محاورتهم : إنى كان لى ملازم ومصاحب من شأنه ما حكاه الله بقوله :

٥٢ -(يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ) : يقول لى فى الدنيا على طريق التوبيخ : أءنك لمن المصدقين ، أى : بالبعث كما ينبىء عنه قوله سبحانه :

٥٣ - (أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ) :

أى : لمبعوثون ومجزيون؟من الدِّين بمعنى الجزاء ، وهذا منه إنكار واستبعاد لوقوع البعث والجزاء بعد الموت ، وبعد أن صار الجسد تراباً وعظاماً نخرة .

قال أبو السعود : قيل : كان رجل تصدق بماله لوجه الله فاحتاج فاستجدى بعض إخوانه فقال له : أين مالك ؟ قال : تصدقت به ليعوضنى الله - تعالى - فى الآخرة خيراً منه. فقال : أئِنَّك لمن المصدقين بيوم الدين؟ والله لا أُعطيك شيئاً : فيكون التعرض لذكر موتهم وكونهم تراباً وعظاماً حينئذ لتأكيد إنكار الجزاء المبنى على إنكار البعث .

٥٤ - (قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ) : هذا من قول الله لأهل الجنة ، وقيل : القائل بعض الملائكة ، وقيل : هو من قول المؤمن لإخوانه فى الجنة بعد ماحكى لهم مقالة قرينه فى الدنيا يقول لهم : هل أنتم مطلعو ن إلى أهل النار ، لأُريكم ذلك القرين ، يريد بذلك صدقه فيما حكاه ، وعلى أن القائل هو الله أو بعض الملائكة يكون المعنى : هل تحبون أن تطلعوا على أهل النار لأُريكم ذلك القرين ، فتعلموا منزلتكم من منزلتهم ؟

٥٥ ـ (فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَآءِ الْجَحِيمِ) :

فاطلع المسلم على أهل النار تلبية للعرض أو الأمر فرأى قرينه وسط الجحيم ، قال كعب فيما ذكر ابن المبارك : إن بين الجنة والنار كُوًى فإذا أراد المؤمن أن ينظر إلى عدو كان له فى الدنيا اطلع من بعض الكوى .

٥٦ ـ (قَالَ تَاللهِ إن كِدتَّ لَتُرْدِينِ) :

قال القائل لقرينه :إن كدت لتهلكنى بالإغواء وبما تزينه لى من عدم تصديق الوعيد بالبعث والحساب والجزاء .

٥٧ ـ (وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّى لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ) :

أى : ولولا العصمة والتوفيق فى الاستمساك بعروة الإسلام لكنت من الذين أُحضروا العذاب كما أُحضرت أنت وأمثالك .

٥٨ ، ٥٩ ـ (أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ * إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ) :

رجوع إلى محاورة جلسائه بعد إتمام الكلام مع قرينه ابتهاجاً بما آتاه الله من الفضل العظيم ، وتقريعا للقرين بالتوبيخ .

والمعنى : أنحن مخلدون منعمون فما نحن بميتين ولا معذبين ، والهمزة للتقرير وفيها معنى التعجب والفرح ، ويراد أن حال المؤمنين ألا يذوقوا إلا الموتة الأُولى فهم فى الجنة أحياءٌ حياة دائمة لا يعتريها فناء ، بخلاف الكفار فإنهم يتمنون فى موقفهم الموت كل ساعة ، وقيل لحكيم : ما شر من الموت؟ قال : الذى يتمنى فيه الموت ،وهذا قول يقوله المؤمن تحدثا بنعمة الله بمسمع من قرينه ، ليكون تعذيباً لهذا القرين ، وزيادة فى توبيخه ، وقيل : هو قول يقوله أهل الجنة للملائكة يقولونه اغتباطاً وفرحاً .

(وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ) هذه الجملة تفيد استمرار نفى العذاب وتأْكيده ،واستمرار نفيه نعمة عظيمة مستوجبة للتحدث بها ، وذلك مفض إلى نفى زوال نعيمهم المحكى فى قوله تعالى : « أُولَٰئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ » الآيات ، واختير التعرض لاستمرار نفى العذاب دون إثبات استمرار النعيم ؛ لأن نفى العذاب أسرع خطورا ببال من لم يعذب عند مشاهدة من يعذب ، وقيل : درءُ الضرر أهم من جلب المنفعة .

٦٠ - (إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ) :

هذا من تتمة قول القائل : (أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ) وجوز أن يكون من كلامه - تعالى - قاله - سبحانه - تصديقاً لقول ذلك القائل ، وتقريرا له مخبرا به - جل وعلا - حبيبه ﷺ وأمته ، والتأكيد للاعتناء بشأن الخبر .

٦١ - (لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ) :

أى :لنيل مثل هذا الأمر الرفيع ينبغى أن يعمل العاملون لا للحظوظ الدنيوية السريعة الزوال المشوبة بفنون الآلام ، وهذا الكلام من قول الله - عز وجل - لأهل الدنيا . أى : قد سمعتم مافى الجنة من الخيرات والجزاء و (لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ) .

(أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمْ لَءَاكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾)

المفردات :

(أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا) النزل : ما يُقدَّم للنازل من الرزق .

(أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ) الزقوم : شجر مرٌّ يكون بتهامة ، سميت به الشجرة الموصوفة وهى صغيرة الورق كريهة الرائحة .

(فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ) : محنة وعذاباً لهم فى الآخرة . وابتلاءً لهم فى الدنيا .

(طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَٰطِينِ) أى : ثمرها كأنه فى تناهى الكراهة وقبح المنظر رءوس الشياطين ، والعرب تشبه القبيح الصورة بالشيطان أو رأس الشيطان أو وجهه .

(لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ) أى : لشراباً ممزوجاً من ماءٍ شديد الحرارة يقطع أمعاءهم ، قال الفراء : شابَ طعامه وشرابه : إذا خلطهما بشىء يشوبهما .

(ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ) أى : إن مرجعهم ومردهم إلى دركات جهنم بعد أن ذهب بهم من مقارهم فيها إلى شجرة الزقوم ليأكلوا منها ويملأوا بطونهم .

التفسير

٦٢ - (أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ) :

ذلك من كلامه - عز وجل - عند الأكثرين لا من كلام القائل ، وهو متعلق بقوله - تعالى - : (أُولَٰئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ) :

والمعنى : أذلك الرزق المعلوم الذى حاصلهُ اللذة والسرور ، خير نزلا وطعاما أم شجرة الزقوم التى حاصلها الهم والغم ، ويراد من التفاضل بين النزلين التوبيخ والتهكم ، وهو أسلوب كثير الورود فى القرآن الكريم ،ومعنى ذلك : أن الرزق المعلوم اللذيذ نزل أهل الجنة الذى يقدم لهم ، وأهل النار نزلهم شجرة الزقوم ، فأيهما خير نزلًا ؟ .

٦٣ - (إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِّلظَّالِمِينَ) :

أى :جعلنا شجرة الزقوم محنة وعذاباً لهم فى الآخرة ، وابتلاءً لهم فى الدنيا ، فإنهم لما سمعوا أنها فى النار قالوا : كيف يمكن ذلك والنار تحرق الشجر؟ ولم يعلموا أن إبراهيم -عليه السلام - أُلقى فى النار ولم تحرقه ، فالله أقدر على خلق الشجر فى النار ، وحفظه من الاحتراق ، فالنار لا تحرق إلا بإذنه ومشيئته . على أنه لا يستحيل فى العقل أن يخلق الله فى النار شجرًا من جنسها لا تأكله النار ، كما يخلق الله فيها الحيات والعقارب وخزنة النار . واختلف فى شأنها على قولين :

الأول : أنها معروفة من شجر الدنيا يعرفها العرب بتهامة من أخبث الشجر وأقبحه منظرا وطعماً .

والثانى : أنها لا تعرف فى شجر الدنيا ، فلما نزلت هذه الآية قال كفار قريش :ما نعرف هذه الشجرة .

٦٤ ـ (إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ الْجَحِيمِ) :

أى : منبتها فى قعرها ، وأغصانها ترتفع إلى دركاتها .

٦٥ ـ (طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَـٰطِينِ) :

أى : ثمرها كأنه لقبحه وهوْلِه شبيه برءُوس الشياطين ، وهى وإن لم تكن معروفة عند المخاطبين إلا أنه قد استقر فى النفوس أن الشياطين شديدة القبح ومن ذلك قولهم لكل قبيح : هو كصورة الشيطان ، ولكل حسن : هو كصورة ملك ، كما يتصورون صورة للغول وإن كانت لا تعرف ، ومنه قول امرىء القيس :

أتقتلنى والمشرف مضاجعى ومسنونة زرق كأنياب أغوال

وقيل : الشياطين : الحيات الهائلة القبيحة المنظر لها أعراف ، وقيل : إن شجراً ـ يقال له : الأستن ـ خشنا منتنا مرًّا منكر الصورة يسمى ثمره رءُوس الشياطين ، ولا حرج على قدرة الله ـ تعالى ـ أن ينبت هذا النوع من الشجر فى أصل الجحيم بأن يجعل فى تركيبه (كيمياء خاصة) تمنع احتراقه بالنار ، وتجعل النار غذاء له ، وكم لله من عجائب منها : أن الله ـ تعالى ـ جعل النار على إبراهيم بردًا وسلاماً . ـ كما تقدم ذكره ـ

٦٦ ـ (فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ) :

أى : فمن شجرة الزقوم طعامهم وفاكهتهم بدل رزق أهل الجنة يأكلون منها أو من ثمرها ، فيملأُون البطون لغلبة الجوع ، أو لقهرهم على أكلها وإن كرهوها ؛ لأنهم لا يجدون إلا إياها أو نحوها ، كما قال ـ تعالى ـ : (لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ * لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِى مِن جُوعٍ)

٦٧ ـ (ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْباً مِّنْ حَمِيمٍ) :

أى : ثم إن لهم على أكلها لشرابا مزج بالحميم تعذيباً لهم .

٦٨ ـ (ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ) :

أى : إن مرجعهم لإلى مقرهم من النار ؛ فإن فى جهنم مواضع أعد فى كل موضع منها نوع من البلاء ، فالقوم يخرجون من مقارهم فى النار ، إلى موضع آخر فيه ذلك الشراب المشوب بالحميم ، ثم يردون إلى دركاتهم ، وهذا الحميم فى موضع آخر من جهنم خارج عن مقرهم . وقيل : خارج عنها لقوله ـ تعالى ـ : (هَٰذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ ۞ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ)[1] .

وكأن بين خروج القوم للشراب وعودهم إلى مساكنهم زماناً غير يسير يتجرعون فيه ذلك الشراب ، ولذلك جىء بلفظ ثم ، وهو فى مقابلة مالأهل الجنة من شراب ، وفيه يقول سبحانه : (وَمِزَاجُهُ مِن تَسْنِيمٍ . عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ[2]) والمدلول عليه بقوله تعالى : (يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ) إلخ . كما أن الزقوم فى مقابلة مالهم من الفواكه .

(إِنَّهُمْ أَلْفَوْا ءَابَاءَهُمْ ضَآلِّينَ ﴿٦٩﴾ فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٧١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ﴿٧٢﴾ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٧٤﴾)

المفردات :

(إِنَّهُمْ أَلْفَوْا ءَابَآءَهُمْ ضَالِّينَ) أى : وجدوهم وصادفوهم بعيدين عن الحق .

(يُهْرَعُونَ) أى : يسرعون كهيئة الهرولة ، وقيل : الإسراع الشديد .

(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ) أى : رسلا أنذروهم العذاب فكفروا .

(عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ) أى : نهاية الذين أنذروا وحذّروا وهى إهلاكهم لكفرهم .

(١) الرحمن الآية ٤٣ ، ٤٤ (٢) سورة المطففين ٢٧ ، ٢٨

التفسير

٦٩ ، ٧٠ – (إِنَّهُمْ أَلْفَوْا ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ * فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ) :

تعليل لاستحقاقهم ما ذكر من فنون العذاب ، بتقليد الآباء فى أصول الدين من غير أن يكون لهم ولا لآبائهم شيء يستمسك به أصلا ، أى : صادفوهم ضالين فى نفس الأمر ، ليس لهم ما يصلح شبهة ، فضلا عن صلاحية كونه دليلا ، وكانوا فى اتباعهم آباءهم مسرعين إسراعاً شديدًا ، كأنهم يُحَثُّون على ذلك حثاً ، وقد فعلوا ذلك من غير أن يثبت لديهم أن آباءهم محقون فى حين أنهم على الباطل بأدنى تأمل .

٧١ ، ٧٢ – (وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ * وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ *) :

أى : ولقد ضل قبل هؤلاء الظالمين وهم قريش – ضل قبلهم – أكثر الأولين من الأمم السابقة ، حيث جعلوا مع الله آلهة أخرى ، وهو جواب قسم مقدر ، وكذا قوله تعالى : (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَافِيهِم مُّنذِرِينَ) أى : والله لقد أرسلنا فى الضالين عددًا كثيرًا من الأنبياء بينوا لهم بطلان ما هم عليه . وأنذروهم ، وحذروهم عاقبته الوخيمة التى يصيرون إليها وهى النكال الشديد والعذاب الأليم ، وتكرير القسم فى الآيتين لإبراز كمال الاعتناء بتحقيق مضمونهما .

٧٣ – (فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ الْمُنذَرِينَ) :

من الهول والفظاعة حيث لم يلتفتوا إلى الإنذار ، ولم يتأثروا به ، ويرفعوا له رأساً ، فأهلكهم الله ودمرهم ونجى المؤمنين ونصرهم .

والخطاب لرسول الله ﷺ أو لكل أحد يتمكن من مشاهدة آثارهم ، ولما كان المعنى أنهم أهلكوا هلاكاً فظيعاً استثنى منهم المخلصين بقوله – تعالى – :

٧٤ – (إِلَّا عِبَادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ) :

وهم الذين استخلصهم الله من الكفر للإيمان والعمل الصالح ، بموجب الإنذار ، أو الذين أخلصوا لله دينهم على القراءتين بفتح اللام وكسرها ، فهو استثناء من المنذرين فى الآية السابقة ، أو استثناءٌ من قوله – تعالى – : (وَلَقَد ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ) .

(وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْآخِرِينَ ﴿٧٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٩﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْآخَرِينَ ﴿٨٢﴾)

المفردات :

(وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ) من النداء : وهو الاستغاثة .

(وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ) أى : أهل دينه .

(مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ) أى : الغرق ، أو الغم الشديد : على ما قاله الراغب .

(وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى الْآخِرِينَ) أى : تركنا عليه ثناءً حسناً فى كل أمةٍ لأنه محبب إلى جميع الأديان .

التفسير

٧٥ - (وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ) :

لما ذكر -تعالى- عن أكثر الأولين أنهم ضلوا عن سبيل النجاة ، شرع يبين ذلك مع نوع تفصيل لما أجمل من قبل ، ببيان أحوال بعض المرسلين وحسن عاقبتهم ، مع بيان سوء عاقبة بعض المنذرين ، كقوم نوح - عليه السلام - وحسن عاقبة بعضهم الذين أخلصهم الله لطاعته ، كقوم يونس - عليه السلام - .

والقصص التى شرع فى بيانها هى : قصص نوح ، وإبراهيم ، وإسماعيل ، وموسى وهارون ، وإلياس ، ولوط ، ويونس -عليهم السلام- وفيها عبر بالغة ،وإنذار وتهديد لقريش ، وتسلية للرسول ﷺ .

وقدم الحديث عن قصة نوح لسبقه المذكورين جميعًا. ومعنى الآية: أن نوحا -عليه السلام -: نادى ربه نداء استغاثة متضمنا الدعاء على كفار قومه، وسؤال النجاة، وطلب النصرة، حين أيس من إيمانهم بعد أن دعاهم أحقابًا ودهورًا، فقد لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عامًا فلم يؤمن معه إلا القليل، ، وكان كلما دعاهم ازدادوا نفرة وتكذيبًا « فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ »[1] فغضب الله لغضبه عليهم، ولهذا قال: (وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ) أي: فوالله لنعم المجيبون نحن حيث أجبناه أحسن إجابة، ونصرناه على أعدائه، فانتقمنا منهم بأبلغ ما يكون، وفيه من تعظيم الإجابة ما فيه.

وأخرج ابن مردويه : عن عائشة - رضى الله تعالى عنها - قالت: كان النبي ﷺ إذا صلى فى بيتى فمرَّ بهذه الآية (وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ) قال: صدقت ربنا أنت أقرب من دُعى، وأقرب من بُغى فنعم المدعو، ونعم المعطى، ونعم المسئول ونعم المولى أنت ربنا، ونعم النصير.

٧٦ - (وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ) :

أى: ونجينا نوحًا وأهله وهم من آمن معه وأولاده - نجيناهم - من الغرق، والغمّ الشديد.

٧٧ - (وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ) :

أى: ضمنا لذريته وحدهم البقاء، فجميع البشر بعده من أحفاده. « رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا »[2]

قال ابن عباس : لما خرج نوح من السفينة مات من معه من الرجال والنساء إلا ولده ونساءه فذلك قوله : (وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ)

وقال سعيد بن المسيب : كان ولد نوح ثلاثة والناس كلهم من ولده.

فسام أبو العرب، وفارس، والروم، واليهود، والنصارى.

وحام : أبو السودان من المشرق إلى المغرب، والسند، والهند، والزنج، والحبشة، والبربر وغيرهم.

---

(١) سورة القمر، آية : ١٠ (٢) سورة نوح، من الآية : ٢٦

ويافث : أبو الترك ، ويأجوج ، والصقالبة .

والأكثر على أن الناس كلهم فى مشارق الأرض ومغاربها من ذرية نوح ـ عليه السلام ـ ولذا قيل له : آدم الثانى ، واستدل على ذلك بهذه الآية .

وقال قوم : كان لغير ولد نوح ـ أيضاً ـ نسل بدليل قوله ـ تعالى ـ : « ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ »(١)

وقوله : « قِيلَ يَا نوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ »(٢) فعلى هذا يكون معنى الآية : وجعلنا ذريته هم الباقين دون ذرية من كفر ، فإنا أغرقنا أولئك ، ذكر ذلك القرطبى ، والراجح الأول لحصر البقاء فى ذريته صراحة فى قوله ـ تعالى ـ : (وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ) .

٧٨ ـ (وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى الْآخِرِينَ) :

أى : تركنا عليه ثناءً حسنًا فى الباقين من الأمم إلى نهاية الدهر . وهذا الثناء أشار إليه قوله : ـ تعالى ـ :

٧٩ ـ (سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ فِى الْعَلَمِينَ) :

هذا الكلام وارد على الحكاية ، وهو محكى بِتَرَك من قوله (وتركنا . .) فى موضع نصب بها على ماقاله الفراءُ وغيره من الكوفيين ، أى تركنا عليه هذا الكلام بمعناه ، والمراد أبقينا له دعاءَ الناس وتسليمهم عليه أمة بعد أمة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، وقيل : هذا سلام من الله ـ عزَّ وجل ـ لا من الآخرين ، ومفعول تركنا مقدر ، أى : تركنا عليه الثناء الحسن وأبقيناه له فيمن بعده إلى آخر الدهر ، وجملة « سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ » مفعول لقول مقدر على ما ذكر الخفاجى ، أى : وقلنا : سلام إلى آخره (فِى الْعَلَمِينَ) : من تتمة الجملة السابقة . جىء به للدلالة على الاعتناء التام بثبات هذا الدعاء واستمرار هذه التحية أبدًا فى العالمين ، من الملائكة والثقلين جميعًا .

---

(١) الإسراء ، من الآية : ٣

(٢) سورة هود ، من الآية : ٤٨

وقيل : المراد من العالمين الأنبياءُ ، إذلم يبعث بعده نبي إلا أُمر بالاقتداء به ، قال الله تعالى : « شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا » (١) .

٨٠ ـ (إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ) :

تعليل لما فعل به ـ عليه الصلاة والسلام ـ من التكرمة السنية من إجابة دعائه أحسن إجابة ، وإبقاء ذريته ، وذكره الجميل وتسليم العالمين عليه إلى آخر الدهر ، لكونه من المعروفين بالإحسان الراسخين فيه الذين نجزيهم أحسن الجزاء ، ويكون ما وقع له من قبيل مجازاة الإحسان بالإحسان ، وإحسانه مجاهدة أعداء الله ـ تعالى ـ والدعوة إلى دينه ، والصبر الطويل على أذاهم ، أى : مثل هذا الجزاء الكامل نجزى العاملين فى الإحسان ، أى : نجعل لهم لسان صدق يذكرون به بعدهم بحسب مراتبهم فى ذلك .

٨١ ـ (إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ) :

تعليل لكونه ـ عليه السلام ـ محسنا بخلوص عبوديته ، وكمال إيمانه ، للدلالة على جلالة الإيمان ، وأنه القصارى من صفات المدح والتعظيم .

٨٢ ـ (ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ) :

أى : المغايرين لنوح ـ عليه السلام ـ وأهله ، وهم كفار قومه أجمعين . فلم يبق منهم أحد ، ولا عين ولا أثر ، ولا يعرفون إلا بهذه الصفات القبيحة ، وثم للتراخى فى الذكر لا فى الواقع ، إذ بقاؤه ـ عليه السلام ـ ومن معه متأخر عن الإغراق .

* (وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾)

(١) سورة الشورى ، من الآية : ١٣

المفردات :

(مِن شِيعَتِهِ) : من أنصاره وأعوانه وأهل دينه الذين على منهاجه .

(بِقَلْبٍ سَلِيمٍ) : بقلب خالص من آفات القلوب .

(أَئِفْكاً) الإِفْكُ : أسوأُ الكذب والاختلاق .

التفسير

٨٣ ، ٨٤ - (وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ لَإِبْرَٰهِيمَ * إِذْ جَآءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ *) :

هذه الآيات شروع فى جانب من قصة إبراهيم بعد الفراغ من قصة نوح -عليهما السلام- وقصة إبراهيم متعددة الجوانب ، كثيرة الأحداث- وقد جاءت فى سور كثيرة من سور القرآن وكلُّها تعتمد الجانب العقدى أولا ثم تنتقل إلى الغرض الذى اختص بسورته ماعدا ماجاء فى سورة الأنعام ، فقد اختص بالجانب العقدى والتفكير فى ملكوت السموات والأرض وخالقهما ومسخّرهما حتى خلص بابراهيم - عليه السلام - من هذا إلى توحيد الله ، وتوجيه وجهه إلى الذى فطر السمٰوات والأرض .

أما السور الأُخرى التى جمعت بين الكلام على العقيدة والتوحيد وجوانب أُخرى فكثيرة فى القرآن الكريم مع اختلاف فى العرض والتصوير ، والتطويل والتقصير .من ذلك ماجاء فى سورة البقرة من رفع إبراهيم وإسماعيل القواعد من البيت ، والاتجاه إلى الله أن يتقبل منهما وأن يباركه ، ويبارك ذريتهما .

وما جاء فى سورة مريم من حواره مع أبيه : « إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَـٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا »؟[1] وما انتهى إليه أمر أبيه من رفض الإيمان حتى اضطر إبراهيم - عليه السلام - إلى اعتزاله .

وماجاء فى سورة الأنبياء من تسفيه قومه على عبادة الأصنام ، وعلى الضلال الذى يعيشون فيه ، وما انتهى إليه أمره من الكيد للأصنام ، وتكسيرها ، وكيد قومه له بإلقائه فى النار التى جعلها الله عليه بردا وسلاماً ، وردّ كيدهم عليهم فكانوا هم الأخسرين .

(١) الآية ٤٢ من سورة مريم .

ومن هذا أيضًا ما جاء فى سورة الشعراء حول تبكيت قومه على عبادة من لا يسمع ولا يبصر ولا ينفع ولا يضر، ثم يخلص من هذا إلى تعداد نعم الله -تعالى- عليه وعلى عباده، وفضله فيهم « الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ * وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ . . . »[1]. ثم تنتهى هذه الآيات بأصدق دعاء وأخلص تضرع « رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ * وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ * وَاجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ . . . » .

ثم تأتى هذه السورة- سورة الصافات-فتوضح محنة الابتلاء وما كان من صدق الأب فى تنفيذ أمر الله، وماكان من طاعة الابن لأمر ربه، والرضا بالقضاء حتى تجلّى عليهما بكشف البلاء، وإنزال الفداء .

هذا وقد جاء أسلوب قصة إبراهيم مرتبطًا بقصة نوح-عليهما السلام- لما قيل من أن إبراهيم - عليه السلام- يعتبر آدم الثالث بالنسبة للأنبياء والمرسلين بعده لأنهم من ذريته إلا لوطا، ومما يزيد فى حسن هذا الارتباط اشتراكهما فى المنحة ونجاتهما فى المحنة : فنوح-عليه السلام- نجاه الله من الغرق ، وإبراهيم نجاه الله من الحرق .

ومعنى : (وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ) وإن من شيعة نوح وأنصاره-الذين تابعوه فى أصول الدين، وسلامة العقيدة . وإخلاص التوحيد لله - لإبراهيم - عليه السلام - فقد اتفقت شريعتهما على توحيد الله ، واختصاصه بالعبادة ، وإن اختلفت فروع شريعتيهما .

وقيل : شايعه فى التصلب فى الدين ، ومصابرة المكذبين ، ونقل هذا عن ابن عباس .

وليس فى الكلام ما يمنع من اجتماع المعنيين معا .

وقَوْلُهُ تَعَالَى : (إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ) : توقيت وتوضيح للمشايعة ، والمعنى : شايعه حين جاء ربَّهُ ، أى : أقبل على ربه الذى أحسن خلقه وتربيته -جاءه - بقلب سليم خالص من آفات القلوب نَقِيٍّ من العلائق الدنيوية الشاغلة عن العبادة ، والتبتل لله تعالى .

---

(١) الآيات من ٦٩-٨٩ من سورة الشعراء .

وسلامة القلب أهم ما ينبغى أن يتوافر فى المسلم؛ لسلامة أعماله، وصلاح جميع أحواله.

٨٥، ٨٦، ٨٧ ـ (إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ * أَئِفْكاً آلِهَةً دُونَ اللهِ تُرِيدُونَ * فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ *) :

قوله ـ تعالى ـ « إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ.. » الآيات بيان وتفسير لقوله ـ تعالى ـ : « إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ » .

والمعنى : إذ قال إبراهيم لأبيه آزر ـ منكرًا عليه، ساخرًا من سلوكه ـ ما الذى تعبدونه من دون الله ؟

أتريدون ـ لأسوأ الكذب، وأقبح الافتراء والسفه ـ أن تتخذوا آلهة موهومة، وأصناماً تصنعونها بأيديكم تؤمنون بها، وتخصونها من دون الله بالعبادة ولو فكّرتم لرأيتم أنكم أشرف منها لأنكم الصانعون، وهى المصنوعة .

« فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ » أى : فما ظَنُّكُمْ إذ تفعلون هذا الفعل المنكر بمن هو حقيق بالعبادة، جدير بالتوحيد؛ لأنه ربُّ العالمين، وخالقهم، ومدبر أمورهم حتى تركتم عبادته وحده، وأشركتم معه غيره من مخلوقاته .

أو فما ظنكم بما يفعل بكم رب العالمين، وكيف يعاقبكم بعد ما فعلتم من الإشراك به .

(فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ فَتَوَلَّوْاْ عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾)

المفـردات :

(نَظَرَ) : تأمل بعينه .

(سَقِيمٌ) : مريض عليل .

(فَتَوَلَّوْا) : أعرضوا .

(مُدْبِرِينَ) : راجعين .

التفسير

٨٨ - (فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ) :

نظر فيها كما كانوا يفعلون فى تعرف أحوالهم ، فأوهمهم من تلك الجهة ، وأراهم من معتقداتهم عذرا لنفسه .

والمعنى : فنظر إبراهيم -عليه السلام- حين دعاه قومه للخروج معهم فى عيدهم للعب واللهو والسمر -نظر فى النجوم - يوهم قومه أنه يستنبئها- ويستطلع الرأى من حركاتها ومطالعها ليريهم عذرا لنفسه فى عدم خروجه معهم فى عيدهم مأخوذا من معتقداتهم .

٨٩ - (فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ) :

أى : فقالَ إبراهيم حين نظر إلى النجم : إنى مريض عليل ، يقصد أنه مريض القلب من عبادتهم لغير الله -تعالى- ، وإن كان ظاهره الاعتذار عن عدم الخروج معهم لمرضه ، وعلى هذا يكون قوله : إنى سقيم من المعاريض على نحو ما ذكر فى سورة الأنبياء .

وقيل : كانت له -عليه السلام- حُمَّى لها نوبة معينة فى بعض ساعات الليل ، فنظر ليعرف هل هى تلك الساعة ، فإذا هى قد حضرت ، وكان صادقاً فى ذلك ؛ لأن نوبات الحمى لا تتخلف عادة ، قال المتنبى فى شأن الحمى واعتياد أوقاتها :

وزائرتى كأن بها حياء فليس تزور إلا فى الظلام

بذلت لها المطارف والحشايا فعافتها وباتت فى عظامى

٩٠ - (فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ) :

أى : فأعرض قومه عنه وتركوه راجعين خائفين من عدوى المرض مسرعين إلى عيدهم حين أخبرهم بأنه سقيم ، ولوح لهم بالمرض .

وهكذا احتال فى عدم خروجه معهم بما لم يقنعهم بعذره فحسب ، بل بما حملهم على الفرار وإجلاء المكان منهم ليفعل بأصنامهم ما شاء .

(فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِٱلْيَمِينِ ﴿٩٣﴾ فَأَقْبَلُوٓاْ إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾)

المفردات :

(فَرَاغَ إِلَىٰٓ آلِهَتِهِمْ) : مال إليها فى خفية وحيلة .

(بِالْيَمِينِ) : بالقوة والشدة .

(يَزِفُّونَ) : يسرعون . من زف القوم زفيفاً إذا أسرعوا . ومنه زفيف النعام .

التفسير

٩١ - (فَرَاغَ إِلَىٰٓ آلِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ) :

أى : فمال إبراهيم-عليه السلام- فى خفية وحيلة وتسلل إلى الأصنام التى يتخذونها آلهة بعد أن خلا المكان بخروج القوم إلى عيدهم ، فقال للأصنام - استهزاءً بهم ، وسخرية منهم- : ألاَ تأكلون من هذا الطعام المتعدد الأصناف ، المختلف الأنواع الذى نثره حولكم ، ووضعه بينكم هؤلاء السفهاء الجهال فى يوم عيدهم ، جاهلين أنكم أحجار صمٌ وتماثيل بُكمٌ .

٩٢ - (مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ) :

أى : ما الذى دهاكم ، وأى شىء أصابكم وأسكتكم فجعلكم لاتردون جواباً ، ولا تنطقون . وهو سؤال يقصد به المبالغة فى السخرية والاستهزاء .

٩٣ - (فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْباً بِالْيَمِينِ) :

أى : فمال إبراهيم - عليه السلام- متسلطاً مستعلياً عليهم متمكناً منهم يضربهم ضرباً

شديدًا أليماً بالغاً أقصى القوة والشدة ؛ لأن اليمين أقوى الجارحتين وأشدهما ،وقوة الأداة تقتضى قوة الفعل وشدته .

وقيل : باليمين معناه بسبب اليمين ووفاءً به ،وهو المذكور فى قوله –تعالى : « وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ »[1] :

والمعنى الأول أولى وأوفى بالمقام ،ويتلاقى مع قوله تعالى : « وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ * لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ »[2].

٩٤ – (فَأَقْبَلُوٓا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ) :

فأقبلوا إلى إبراهيم بعد أن رجعوا من عيدهم فألْفوْا أصنامهم مهشّمة محطّمة ، أقبلوا يسرعون فى طلبه والإمساك به ظنا منهم أو يقيناً بأنه هو الذى فعل هذا بها .

(قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا ٱبْنُوا لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُوا بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾)

المفـردات :

(مَا تَنْحِتُونَ) : ما تَبْرُونه وتصنعونه بأيديكم .

(الْجَحِيمِ) : النار الشديدة الاتقاد . من الجحمة وهى شدة التأجج .

(كَيْدًا) : مكرًا وسوءا .

(الْأَسْفَلِينَ) : الأذلين المقهورين .

---

(١) الآية ٥٧ من سورة الأنبياء .

(٢) الآية ٤٤ ، ٤٥ من سورة الحاقة ، وأخذه باليمين مجاز عن أخذه بالشدة والقوة .

التفسير

٩٥ - (قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ) :

قال إبراهيم - عليه السلام - لقومه حين واجهوه بتهمة تحطيم أصنامهم وقالوا له: « أَأَنتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَاإِبْرَاهِيمُ » [1] قال : أيستقيم منكم ويصح فى عقولكم أن تعبدوا أصناماً نحتموها من الصخر ، وصنعتموها بأيديكم من الحجارة ، ثم تتخذونها آلهة تدعونها رغباً ورهباً من دون الله ، وإنما سألهم ذلك تبكيتا لهم ، وسخرية بهم ، واستخفافاً بعقولهم .

٩٦ - (وَاللهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ) :

هذه الآية من جملة كلام إبراهيم - عليه السلام - والمعنى : أتعبدون ما تنحتون وتتركون عبادة الله الواحد القهار والحال أن الله خلقكم فأحسن خلقكم ، وصوركم فأبدع صوركم ، وخلق هذه الأصنام التى تصنعونها لأن جوهرها ومادتها من خلق الله - تعالى - وأما صورها وأشكالها - وإن كانت من أعمالهم - فهى من إقداره لهم - جل شأنه - وخلق ما يتوقف عليه فعلهم من العدد والأسباب .

خرّج البيهقى من حديث حذيفة ، قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله - عز وجل - خلق كل صانع وصنعته ، فهو الخالق ، وهو الصانع سبحانه » .

٩٧ - (قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَاناً فَأَلْقُوهُ فِى الْجَحِيمِ) :

أى : قال قوم إبراهيم حين انقطعت بهم الحجة ، وأعياهم الجواب المقنع - قالوا - : ابنوا له حائطاً ضخماً ، وبنيانا كبيرا واجمعوا فيه الأحطاب ، وأضرموا فيها النار ، وألقوه فى لهيبها المتقد ، ، وجحمتها المتأججة عقوبة له على فعلته ، وتخلصا من خطره وسطوته

---

(١) الآية ٦٢ من سورة الأنبياء .

٩٨ - (فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ) :

أى : وأراد قومه بهذا العمل معه كيدا به وإحراقاً له ، فرد الله كيدهم إلى نحورهم ، وجعل النار برهاناً على صدق دعوته وعلو قدره حيث جعلها عليه بردا وسلاماً ، وجعلهم الأذلين المقهورين الأسفلين .

(وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾)

المفردات :

(ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّى) : مهاجر إلى حيث أمرنى . أو ذاهب إلى حيث أتجرد لعبادته .

(هَبْ لِى مِنَ الصَّالِحِينَ) : ارزقنى الولد الصالح .

التفسير

٩٩ - (وَقَالَ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّى سَيَهْدِينِ) :

أى : وقال إبراهيم - عليه السلام - بعد أن نجاه ربه من كيد قومه ، وجعل النار بردا وسلاماً عليه ، وبعد أن يئس من إيمانهم ، وكره المقام معهم - قال - : إنى مهاجر إلى حيث أمرنى ربى - يريد الهجرة إلى الشام - أو إنى مهاجر إلى حيث أتجرد لعبادته ، وأخلص لتقديسه وتسبيحه .

ومعنى سيهدين : سيرشدنى ويوفقنى إلى ما فيه صلاح دينى وراحة نفسى .

وَبَتَّ القول فى الهداية لسبق الوعد ، أو لفرط توكله ، أو بناء على ما جرت به السوابق معه ولم يكن كذلك حال موسى - عليه السلام - حيث قال : «عَسَى رَبِّى أَن يَهْدِيَنِى

سَوَآءَ السَّبِيلِ »[1] بصيغة الرجاء والتوقع لعدم سبق الوعد معه ، أو لأنه كان بصدد أمر دنيوىَ فناسبه عدم الجزم .

١٠٠ - (رَبِّ هَبْ لِى مِنَ الصَّالِحِينَ) :

هذه الآية اتجاه من إبراهيم -عليه السلام- إلى ربه وتضرع إليه أن يرزقه من ذريته ما يعينه ، ويجبر ضعفه ، ويشد أزره ، والمعنى : ربِّ ارزقنى بعض الصالحين يعيننى على الدعوة والطاعة ، ويؤنسنى فى الغربة ويواسينى فى الكربة ، يعنى بهذا طلب الولد لأن الهبة عند الإطلاق تخصه غالباً .

١٠١ - (فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ) :

هذه الآية صريحة فى أن المبشر به عيْن ما استوهبه -عليه السلام- والمعنى : فاستجاب الله دعاء خليله وبشره بغلام حليم ، وانطوت البشارة على بشارات ثلاث :

١ - أنه ولد ذكر. ٢ - أنه يبلغ ويدرك مدارك الشباب . ٣ - أنه يكون غاية فى الحلم ، والخلق والرضا .

وأى حلم يعدل حلمه -عليه السلام- وقد عرض عليه أبوه أمر ذبحه ، وهو فتى فى عنفوان شبابه وازدهار قوته ، فيقول فى إذعان ورضاً : « يَآ أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِى إِن شَآءَ اللهُ مِنَ الصَّابِرِينَ » .

(فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾)

---

(١) من الآية ٢٢ من سورة القصص .

المفـردات :

(بَلَغَ مَعَهُ السَّعْىَ) : وصل إلى رتبة أن يسعى مع والده فى أعماله ، ويعاونه فى حوائجه .

(تَرَى) أى : تشير وتفكر ، مأخوذ من الرأى .

التفسير

١٠٢ ـ (فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْىَ قَالَ يَا بُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَى فِى الْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى ، قَالَ يَٰٓأَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ اللهُ مِنَ الصَّابِرِينَ) :

جرى الأسلوب فى هذه الآيات على نمط القصص القرآنى بطىِّ ما يقتضيه السياق وحذف ما ترشد إليه أحداث القصة ، والمعنى : وهبنا له هذا الغلام الذى استوهبنا إياه وبشرناه به ، « فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْىَ » أى : فلما اشتد عوده وبلغ رتبة أن يسعى مع أبيه ويعينه فى أعماله ، ويساعده على حوائجه كاشفه بواقع الأمر وصارحه بحقيقته فناداه بإشفاق وتحنن « يَا بُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَى فِى الْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى » أى : فتأمل هذا الأمر ، وَأَدِرْ فيه رأيك ، وأشر علىَّ بما يستقر عندك .

وإنما شاوره ـ وهو حتم لا خيار فيه ـ ليعلم ما عنده ويهيئه لقبول ما نزل من بلاء الله ـ عز وجل ـ فيثبت قدمه إن جزع ، وليوطن نفسه فيهون الأمر عليه ويكتسب المثوبة بالانقياد لأمر الله ـ تعالى ـ قبل نزوله خوفاً من المفاجأة ، ولتكون سنة فى المشاورة .

« قَالَ يَٰٓأَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ اللهُ مِنَ الصَّابِرِينَ » أى : فأجاب الغلام أباه فى طمأنينة وصدق امتثال : يا أبت افعل ما تؤمر به ، ونفِّذ ما أراكه الله ، ستجدنى إن شاء الله من جملة الراضين بأمر الله ، الصابرين على قضائه ، المذعنين لمشيئته وحكمه .

قال بعض أهل الإشارة : فلما استثنى [1] وفقه الله للصبر .

قيل : إن إبراهيم ـ عليه السلام ـ رأى ليلة الثامن من ذى الحجة كأن قائلا يقول له : إن الله يأمرك بذبح ابنك هذا ، فلما أصبح روَّى فى ذلك من الصباح إلى الرواح ، قائلا

---

(١) المراد من الاستثناء :

تعليق صبره على مشيئة الله ـ تعالى ـ فى قوله : (سَتَجِدُنِى إِن شَآءَ اللهُ مِنَ الصَّابِرِينَ) .

فى نفسه : أمِنَ الله هذا الحلم أم من الشيطان ؟ فمن ثمة سُمِّى يوم التروية ، فلما أمسى رأى مثل ذلك فعرف أنه من الله . فمن ثمة سمى يوم عرفة ، ثم رأى مثل ذلك فى الليلة الثالثة فهم بنحر ولده فسمى اليوم يوم النحر .

واختلف العلماء فى حقيقة الذبيح . هل هو إسماعيل أو إسحق ؟ والأظهر الأشهر أن الذبيح المخاطب هو إسماعيل – عليه السلام– إذ هو الذى وهب إثر المهاجرة ؛ لأن البشارة بإسحق بعده معطوفة على البشارة بهذا الغلام . ولقوله –عليه الصلاة والسلام– : «أنا ابن الذبيحين » فأحدهما جدّه إسماعيل ، والآخر أبوه عبد الله ؛ فإن عبد المطلب نذر أن يذبح ولدا إن سهل الله – تعالى – له حفر بئر زمزم ، أو بلغ بنوه عشرة ، فلما حصل ذلك وأسهم بين أولاده وخرج السهم على عبد الله فداه بمائة من الإبل ،ولأن ذلك كان بمكة ولأن بشارة إسحق كانت مقرونة بولادة يعقوب منه وذلك فى قوله -تعالى- : « فَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحٰقَ يَعْقُوبَ »[1] فكيف يأمره الله بذبحه وقد أخبره بأنه سيكون له منه يعقوب ، وعن الأصمعى قال : سألت أبا عمرو بن العلاء عن الذبيح فقال : يا أصمعى ! ! ! أين عزب عنك عقلك ؟ ومتى كان إسحق بمكة ؟ وإنما كان إسماعيل ، وهو الذى بنى البيت مع أبيه .

ومما يقوى هذا الرأى وينصره أن الله وصف إسماعيل بالصبر دون أخيه إسحق فى قوله : « وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ »[2] وهو صبره على الذبح .

ووصفه بصدق الوعد فى قوله : «إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ»[3] لأنه وعد أباه بالصبر على الذبح فوفّى به .

---

(١) من الآية ٧١ من سورة هود .

(٢) الآية ٨٥ من سورة الأنبياء .

(٣) من الآية ٥٤ من سورة مريم .

(فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَـٰدَيْنَـٰهُ أَن يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَـٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَـٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْـَٔاخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَـٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾ وَبَشَّرْنَـٰهُ بِإِسْحَـٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَبَـٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَـٰقَ ۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ ﴿١١٣﴾)

المفردات :

(أَسْلَمَا) استسلما : لأمر الله ، وانقادا له .

(تَلَّهُ) : أضجعه .

(لِلْجَبِينِ) : يطلق الجبين على أحد جانبي الجبهة ، ويطلق أيضاً على الوجه .

(صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا) : وفيتها حقها بالعزم على تنفيذ ما أمر الله .

(الْبَلَاۤءُ الْمُبِينُ) : الاختبار البين الشدة .

(بِذِبْحٍ عَظِيمٍ) : كبش سمين عظيم القدر .

(ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ) : موبق لها ومهلكها بالكفر والمعاصي .

التفسير

١٠٣-١٠٦ -(فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ * وَنَادَيْنَاهُ أَن يَـآ إِبْرَاهِيمُ * قَد صَدَّقْتَ الرُّؤْيَآ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ * إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَاۤءُ الْمُبِينُ) :

المعنى : فلما استسلم إبراهيم وولده لقضاء الله وانْقَادَا لإنفاذ أمره ، وأخلصا أنفسهما له وفوضا أمرهما إليه أضجع إبراهيم ولده على شقه فوقـع جبينه على الأَرض ، وهو أحـد جانبى الجبهة ، أو : كبّه على وجهه بإشارة الولد كى لا يرى منه ما يورث رقة تحول بينه وبين تنفيذ أمر الله ، وأسلم الولد نفسه للذبح راضياً بقضاء الله ، صابرا محتسبا نفسه عند الله – لما فعلا ذلك – فى صدق ، وإخلاص أدركتهما رحمة الله ووافاهما النداء من قبل الله : يا إبراهيم ،قد صدقت الرؤْيا بالعزم على تنفيذ ما رأيت فى منامك وترتيب مقدماته ، وإعداد مقتضياته ، إنا كذلك نجزى المحسنين الذين ينزلون على قضاء الله ، ولا يؤثرون شيئاً على طاعته وتحصيل رضاه .

وهذا التذييل تعليل لتفريج تلك الكربة عنهما بإحسانهما ، وصدق عزمهما .

قال الآلوسى : أخرج غير واحد أنه قال لأَبيه : لا تذبحنى وأنت تنظر إلى وجهى عسى أن ترحمنى فلا تجهز علىّ . اربط يدىّ إلى رقبتى ، ثم ضع وجهى للأَرض .

وفى الآثار حكاية أقوال كثيرة غير ذلك . وكل هذه الأَقوال تدور حول امتثال الغلام لأَمر الله . وإذعانه لقضائه .

وقوله تعالى : « إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَآءُ الْمُبِينُ » تعقيب يجسد عظم البلاء . وقسوته ، والمعنى : إن هذا الأَمر الذى ابتلينا به إبراهيم وهذا الاختبار الذى سبرنا به غور إيمانه وعمق يقينه ، وتمحيص نبوته لهو الاختيار المتناهى فى وضوح شدته : الذى يتميز فيه المخلصون ، أو لهو المحنة البينة الصعوبة البالغة أقصى غايات القسوة والمرارة : إذ لا شىء أصعب ولا أقسى من أن يذبح الإنسان ولده بيده .

١٠٧ – (وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ) :

كان حديث الآيات السابقة عن عظم البلاء تنويهاً بعظم الفداء ، وترشيحًا لجلال قدره ليقع قوله – تعالى – : « وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ » موقعه من قوة التصور ، وسموّ التفخيم .

والمعنى : أنجينا الغلام من الذبح ، وعافيناه من محنته ، وفديناه بما يذبح بدله - فديناه - بكبش عظيم الجثة مكتنز لحمًا وشحمًا ، أو كبش عظيم القدر لأنه عطاءُ الله ، والعطاءُ يعظم بعظمة معطيه ، ولأنه يفدى به الله نبيًّا ابن نبي .

١٠٨ ، ١٠٩ - (وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ * سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ) :

أى : لم ينته فضلنا على إبراهيم وولده عند كشف غمته ، وإنزال الفداء ، بل تجاوزنا هذا وزدناه حيث تركنا عليه ، أى : أبقينا له وأعقبناه الثناء الحسن والذكر الجميل فى الأمم المتعاقبة بعده تتحرك به الشفاه وتنطلق به الألسن ترديدًا إلى آخر الزمان - تركنا عليه - « سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ » . فكل أهل الأديان يحيونه بالسلام عليه بلغاتهم .

١١٠ - (كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ) :

أى : مثل هذا الجزاء العظيم : من دوام الذكر ، وخالد الثناء نجزى المحسنين فى أعمالهم ، الصادقين فى نيّاتهم وإخلاصهم .

١١١ - (إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ) :

أى : إن إبراهيم - عليه السلام - من جملة عبادنا المؤمنين الراسخين فى الإيمان ، الصادقين فى العقيدة ، ومن كان من جملة عبادنا المؤمنين لا يكون منه إلَّا أطيب الأعمال ، وأصدق الطاعات ، ولا يكون له إلَّا أكرم الحسنات ، وأوفى المثوبات .

١١٢ - (وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ) :

أى : وتوالى إكرامنا لإبراهيم ، واستمرت منحتنا عليه حيث بشرناه بعد إسماعيل بإسحاق ولدًا آخر ، وطويت فى هذه البشارة بشارات حسن تنشئته وإدراكه مدارك الرجال ، ونبوّته .

وفى ذكر الصلاح بعد النبوّة تعظيم لشأنه ، وإيماءٌ إلى أنه الغاية للنبوة ، وأنه الثمرة المرجوة .

١١٣ - (وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ) :

أى : وباركنا على إبراهيم وإسحاق - عليهما السلام - بأن أفضنا عليهما بركات الدين

والدنيا ، فأكثرنا نسلهما وجعلنا منهما أنبياء ورسلًا ، واختلفت أحوال ذريتهما فكان منها محسن بالإيمان والطاعة لنفسه ، وظالمٌ لنفسه بالكفر والمعاصى ظلمًا بيِّنًا ظاهر القبح .

وفى هذا تنبيه إلى أن الخبيث والطيب لا يجرى أمرهما على العرق والعنصر ، فقد يلد البر فاجرًا ، وقد يلد الفاجر برًّا ، وهذا مما يهدم أمر الطبائع والعناصر ، وينبِّه إلى أن الظلم فى أعقابهما لم يعد عليهما بعيب ولا نقيصة ، وإنما يعاب المرء بسوء فعله ، ويعاقب على ما اجترحت يداه لا على ما وجد من أصله وفرعه .

(وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ﴿١١٤﴾ وَنَجَّيْنَـٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١١٥﴾ وَنَصَرْنَـٰهُمْ فَكَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَـٰلِبِينَ ﴿١١٦﴾ وَءَاتَيْنَـٰهُمَا ٱلْكِتَـٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ ﴿١١٧﴾ وَهَدَيْنَـٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١١٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِى ٱلْـَٔاخِرِينَ ﴿١١٩﴾ سَلَـٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٢﴾)

المفـردات :

(مَنَنَّا) : أحسنَّا وأنعمنا عليهما بالنبوة والنجاة والنصرة .

(الْكَرْبِ) : المكروه والشِّدة .

(الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ) : الواضح . وهو التوراة .

(الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ) : الذى لا عوج فيه ؛ لأنه الموصل إلى الحق والصواب .

التفسير

١١٤ - (وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ) :

شروع فى قصة موسى وهارون بعد الفراغ من قصة إبراهيم وما تضمنت من أخبار غريبة ، وأحداث عجيبة ، ومنح جزيلة ، ومواقف جليلة .

وصدّرت قصتهما بالمنّة لإبراز فضل الله - تعالى - عليهما فى ظهورهما على قوم جبّارين فى أمة عاتية ، على رأسها فرعون الغاشم المتأله ، لا يبالون بما يرتكبون من مظالم ، ولا يخجلون مما يقترفون من مغاشم .

والمعنى : ولقد أحسنّا وأنعمنا على موسى وأخيه هارون بالنبوّة وغيرها من النعم الدينية والدنيوية ، حيث بعثناهما فى قوم جبارين ، يستعبدون الأحرار ، ويسخرونهم فى مصالحهم ، ويسومونهم سوء العذاب .

١١٥ - (وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ) :

أى : ونجّينا موسى وهارون ومن تبعهما من قومهما من تسلُّط فرعون وقومه وغشمهم ، وخلّصناهم من الكرب والشدة وألوان العذاب المتفاقم فى العظم والقبح المتمثل فى قوله تعالى : « وَإِذْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ »[1] .

١١٦ - (وَنَصَرْنَاهُمْ فَكَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ) :

أى : لم يقف أمرنا معهما على الإنجاء من كرب فرعون وقومه ، وبطشهم بهم ، بل تجاوز ذلك إلى نصر موسى وهارون وقومهما على هذا الطاغوت ، فكانوا هم الغالبين عليهم غلبة ليس وراءها غاية ، القاضين عليهم قضاء تركهم عبرة للعالمين وآية للمتأملين .

وقد بدىء فى الآية بالتنجية ، وإن كانت مقارنة للنصر للإشارة إلى أن مجرّد التّنجية من عذاب فرعون وقومه فى ذاتها نعمة ، فضلًا عمّا صحبها من النصر والغلبة ، لتوفية مقام الامتنان حقه بإظهار كل مرتبة من المراتب الثلاث : التنجية ، والنصر ، والغلبة نعمةً جليلة على حيالها .

---

(١) من الآية ٤٩ من سورة البقرة .

١١٧ - (وَآتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ) :

هذه الآية من جملة ما مَنَّ الله به على موسى وهارون ، وهى فى موقعها من تتابع المنن وتساوقها بعد التنجية والنصرة والغلبة ليتم الأمن والاستقرار ، ويتعبد الطريق إلى إنزال الكتاب.

والمعنى : وآتينا موسى وهارون بعد تحقيق ما سبق - آتيناهما - الكتاب المستنير الواضح فى تفصيل الشرائع ، البين فى توضيح الأحكام ، وهو التوراة .

١١٨ - (وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ) :

الهداية إلى الصراط المستقيم أثر لإتيان الكتاب .

والمعنى : وهديناهما بإتيان الكتاب الصراطَ المستقيم ، والطريق الممهّد الموصل إلى الحق والصواب بما فيه من تفصيل الشرائع ، وتفاريع الأحكام .

١١٩ ، ١٢٠ - (وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِى الْآخِرِينَ * سَلَامٌ عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ) :

أى : وأعقبناهما زيادة فى المنّة ووفرة فى الإحسان والفضل - أعقبناهما - الذكر الحسن والثناء الجميل فى الأمم التى تأتى بعدهما إلى آخر الزمان بقولهم : « سَلَامٌ عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ » وما فى معناه .

١٢١ ، ١٢٢ - (إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ * إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ) :

إنا مثل هذا الجزاء الذى جازينا به موسى وهارون وقومهما من كل ما ذكرنا ، وما شهدت به الأحداث ، وصار حديثًا عجبًا بين الناس - إنَّا كذلك نجزى المحسنين منهم ومن غيرهم جزاءً سخيًا وافيًا ، إنهما من جملة عبادنا المؤمنين المخلصين فى العبودية ، وكمال الإيمان الذين لا يصدر عنهم إلَّا العمل الصالح ، والسلوك السوى . ولا يقع منهم إلَّا ما يقتضى جزيل الثواب وعظيم الجزاء .

(وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ ﴿١٢٥﴾ اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾)

المفردات :

(إِلْيَاسَ) : هو إلياس بن يس من سبط هارون أخى موسى - عليهم السلام - بعث بعده ، وقيل هو « إدريس » .

(بَعْلًا) : اسم صنم لأهل بَكّ من الشام ، وهو البلد المعروف اليوم باسم « بعلبك » ، وقال عكرمة وقتادة : البعل : الرب بلغة اليمن .

التفسير

١٢٣ ، ١٢٤ - (وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ) :

هذه الآيات دخول على قصة إلياس ومن بلاغة التنزيل ، وروعة إعجازه اختلاف مداخل هذه القصص ، فنى قصة نوح - عليه السلام - كان المدخل : « وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ ». وفى قصة إبراهيم : « وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ » ، وفى قصة موسى وهارون : « وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ » وهذا تفنن فى الأسلوب يزيده جمالًا ، ويزيد القارىء إقبالًا ، حيث يتصدر كل قصة الحدث الجليل فيها .

وقد صدرت قصة إلياس ومَن بعده بتكرار المؤكدات ، لأن أخبارهم لم تبلغ فى الاشتهار والتداول مبلغ نوح وإبراهيم وموسى - عليهم السلام - .

والمعنى : وإن من أنبياء الله -تعالى- ورسله الذين أرسلهم إلى أقوامهم لإرشادهم وهدايتهم إلياس من سبط هارون أخى موسى وبعث بعده ، فاذكر يا رسول الله إذ قال لقومه

حين بعث فيهم : أَلَا تتَّقون الله وتخافون عذابه على كفركم به وجحدكم آلاءه ونعمه عليكم ، وإعراضكم عن توحيده وشكر عطائه ، واتخاذكم آلهة زائفة ، ومعبودات زائلة تالفة .

١٢٥ ، ١٢٦ ـ (أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ * اللهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَآئِكُمُ الْأَوَّلِينَ) :

أى : أيستقيم منكم ، ويصح فى عقولكم وأفهامكم أن تعبدوا صنمًا أصم ، وحجرًا أبكم تجثون حوله ، وتقدمون له القرابين تدعونه لقضاء حوائجكم فتطلبون الخير مما لاخير فيه ، ولايملك لكم ولا لنفسه نفعًا ولاضرًّا (وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ) ، وتتركون عبادته وتوحيده وهو ربكم الذى خلقكم فأحسن خلقكم ، وصوركم فأبدع صوركم ، وخلق آباءكم الأولين السابقين عليكم من لدن آدم ـ عليه السلام ـ الذين عمرت بهم الدنيا ، وامتد الوجود ، وأجرى عليكم وعليهم نعمه ، وسخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض جميعًا منه .

(فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٢٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْآخِرِينَ ﴿١٢٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ ﴿١٣٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣١﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾)

المفردات :

(لَمُحْضَرُونَ) : لشاهدون العذاب مساقون إليه ، والإطلاق فى الحضور اكتفاء بالقرائن ، أو لأن الإحضار المطلق مخصوص بالشر عرفًا .

(إِلْيَاسِينَ) : لغة فى إلياس كسيناء فى سينين ، وهو الأولى ، وقيل : هو جمع له أريد به هو وأتباعه كالمُهلَّبيِّين والخُبَيْبيِّين .

التفسير

١٢٧ ، ١٢٨ - (فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ * إِلَّا عِبَادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ) :

أى :فكذب قوم إلياس رسولهم وعارضوا دعوته ، وأنكروا عليه رسالته فحق عليهم عذاب الله ، وحقت فيهم كلمته فإنهم لشاهدون هذا العذاب ومدفوعون إليه ، ومساقون له لايفلت منهم أحد إلَّا من آمن به وصدقه ، واتبع هداه فكان من الناجين المخلصين فى عقيدتهم وطاعتهم لله .

١٢٩ - ١٣٢ - (وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى الْآخِرِينَ * سَلَامٌ عَلَىٰٓ إِلْيَاسِينَ * إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ * إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ) :

تختم قصة إلياس - عليه السلام - بما اختتمت به قصص الأنبياء قبله .

والمعنى : وتركنا على إلياس - فى الأمم الآتية بعده - الذكر الحسن والثناء الجميل المتمثل فى قول الآخرين : « سَلَامٌ عَلَىٰٓ إِلْيَاسِينَ » وما فى معناه ، إنا مثل هذا الجزاء من الثناء نجزى كل محسن من عبادنا المؤمنين الذين لايصدر عنهم إلَّا القول الطيب والفعل الجميل .

(وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٣﴾ إِذْ نَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٤﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٣٥﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿١٣٦﴾ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾)

المفردات :

(الْغَابِرِينَ) : الباقين فى العذاب ، أو الماضين الهالكين ، من : غَبَر بمعنى بقى أو مضى فهو من الأضداد .

(دَمَّرْنَا) : أهلكنا .

(مُّصْبِحِينَ * وَبِاللَّيْلِ) : داخلين فى الصباح والمساء ، أى : نهارًا وليلًا .

التفسير

١٣٣ – ١٣٦ – (وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ * ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ) :

بدئت قصة لوط بما بدئت به قصة إلياس من تأكيد رسالته ، ثم ذكرت نجاته وأهله إلَّا امرأته من شناعة العذاب الذى لحق بقومه فهدَّم عليهم قراهم تنبيهًا إلى أن نجاته من هذا العذاب نعمة من أجلّ النعم .

والمعنى : وإن لوطًا – عليه السلام – لمن جملة المرسلين الذين أرسلهم الله لهداية أقوامهم فدعاهم ونصحهم ووجههم إلى ما يصلح دينهم ودنياهم فعارضوه ، وكذَّبوه وأمعنوا فى الفاحشة النكراء من إتيان الرجال دون النساء ، فاستوجبوا أنكى عذاب وأقسى عقاب حيث ائتفكت بهم قراهم ، وتهدمت عليهم منازلهم فذهبوا فوق التراب أثرا ، وبقوا للناس عبرا ، فاعلم ذلك يا رسول الله ، واذكر لقومك ترشيدًا ونصحًا إذ نجينا لوطًا وأهله من هذا العذاب الشديد والبطش العتيد إلَّا امرأته العجوز التى انتصرت لقومها فكانت من الباقين فى العذاب ، أو الماضين الهالكين فى التراب . ثمَّ دمَّرْنَا الآخرين فلم يبق منهم باق فإن فى ذلك شواهد على صدق دعوته وكونه من جملة المرسلين .

١٣٧ ، ١٣٨ – (وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ * وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ) :

أى : وإنكم يا كفار قريش لتمرون على منازلهم المهدَّمة فى سفركم إلى الشام للتجارة وأنتم داخلون فى الصباح وفى المساء ، أى : نهارًا وليلًا «وسدوم» من قراهم المؤتفكة فى طريقكم ترونها ، وتشاهدون ما حلَّ بأهلها .

وقوله –تعالى– : « أَفَلَا تَعْقِلُونَ » معناه : أتشاهدون ذلك فلا تتدبرون ولا تعقلون حتى تعتبروا وتخافوا أن يصيبكم مثل ما أصابهم ، وينزل بكم ما نزل بهم ، فإن منشأ ذلك مخالفتهم رسولهم ، وأنتم فى مخالفتكم لرسولكم تفعلون مثل فعلهم .

(وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾)

المفردات :

(أَبَقَ) : هرب ، وأصل الإباق : هرب العبد من سيِّده بغير إذنه .

(الْمَشْحُونِ) : المملوء .

(فَسَاهَمَ) : قارع .

(الْمُدْحَضِينَ) : المغلوبين بالقرعة .

(الْتَقَمَهُ) : ابتلعه .

(وَهُوَ مُلِيمٌ) : داخل فى الملامة مستحق لها .

(الْمُسَبِّحِينَ) : الذاكرين .

(لَلَبِثَ) : مكث .

(يَوْمِ يُبْعَثُونَ) : يوم القيامة .

التفسير

١٣٩ - ١٤٢ - (وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ * فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ * فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ) :

بهذه الآيات الكريمة تنتهى قصص الأنبياء التى احتوتها هذه السورة من كتاب الله .

ومما يثير النظر ، ويسترعى الانتباه فى هذا التنزيل البليغ أن الفلك التى نجَّى الله بها نوحًا وأهله فى أول هذه القصص تكرر ذكرمثلها فى فلك آخر غرق منه يونس فى اليم فى آخر قصة منها .

ويونس – عليه السلام – هو يونس بن متّى ، قيل : إنه نُبِّئ وهو ابن ثمان وعشرين سنة ، وحكى فى البحر أنه كان فى زمن ملوك الطوائف من الفرس.

وقال الآلوسى : « يروى أنه أوعد قومه العذاب ، وأخبرهم أنه ينزل بهم إلى ثلاثة أيام فلما كان اليوم الثالث خرج يونس قبل أن ينزل العذاب بهم ، فعجُّوا إلى الله وأنابوا واستقالوا فأقالهم الله – تعالى – وصرف عنهم العذاب ، فلمَّا لم ير يونس نزول العذاب استحيى أن يرجع إليهم وقال : لا أرجع إليهم كذَّابًا أبدًا ، ومضى على وجهه ، فأتى سفينة فركبها ، فلما وصلت اللجّة وقفت فلم تسر ، فقال صاحبها : ما يمنعها أن تسير إلّا أنّ فيكم رجلًا مشئومًا فاقترعوا ليلقوا من وقعت عليه القرعة فى الماء ، فوقعت على يونس ، ثم أعادوها فوقعت عليه ، ثم أعادوها فوقعت عليه ، فلما رأى ذلك رمى بنفسه فى الماء » .

ومعنى الآيات : وإن يونس – عليه السلام – لمن جماعة المرسلين ، فاذكر يارسول الله قصته وخبره إذ هرب قبل أن يأذن له ربُّه إلى الفُلْك المملوء بالراكبين المزحوم بكثرتهم فرارًا من العذاب الذى أُخبر بنزوله على قومه .

وعبَّر عن خروجه بالإباق مع أن الإباق لا يكون إلّا فى هرب العبد من سيِّده ، لأنه خرج قبل أن يأذن الله له بالخروج فاعتبر إباقًا كإباق العبد من سيِّده ، وحسّنه أن كل مخلوق عبد لله تعالى .

وقوله – تعالى – : (فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ) معناه : فقارع مع من كانوا معه فى السفينة ليلقوا من تصيبه القرعة فى الماء فأصابته القرعة ، وكرروا ذلك ثلاثًا فلم تخطئه فكان من المدحضين بالقرعة المغلوبين فيها ، فلما رأى ذلك رمى بنفسه فى اليم ، فتلقاه الحوت وابتلعه ، وهو آتٍ بما يلام عليه مستحق لذلك.

١٤٣ ، ١٤٤ – (فَلَوْلَآ أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ۞ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ) :

أى : فلولا أن يونس – عليه السلام – كان من الذاكرين الله كثيرًا الذين ديدنهم التسبيح يعيشون فيه ويدومون عليه طوال حياتهم لا ينقطعون عن ذلك ولا يفترون لمكث فى بطن الحوت حيًّا إلى يوم يبعثون : يوم القيامة .

والمراد بالتسبيح : مطلق الذكر كما حمله بعضهم ، وحمله بعض آخر على العبادة ، وقال آخرون : إن التسبيح هو ما ذكره الله ـ تعالى ـ فى قوله : « فَنَادَى فِى الظُّلُمَاتِ أَلَّآ إِلٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ » (١) .

وذهب جماعة منهم ابن عباس إلى حمله على الصلاة ، بل رُوى عنه أنه قال : « كل ما فى القرآن من التسبيح فهو بمعنى الصلاة » .

وفى النص الكريم حثٌّ على إكثار الذكر ، ومداومة التسبيح ، وتعظيم لشأنه ، وتنبيه إلى أن من أقبل على الله فى السراء ، أخذ بيده عند الضراء .

أخرج ابن أبى شيبة عن الضحاك بن قيس قال : « اذكروا الله تعالى فى الرخاء يذكركم فى الشدة فإن يونس ـ عليه السلام ـ كان عبدًا صالحًا ذاكرًا لله ـ تعالى ـ فلما وقع فى بطن الحوت قال الله تعالى : « فَلَوْلَآ أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ . . .) الآية وإن فرعون كان عبدًا طاغيًا ناسيًا لذكر الله ـ تعالى ـ فلما أدركه الغرق قال : « آمَنتُ أَنَّهُ لَآ إِلٰهَ إِلَّا الَّذِىٓ آمَنَتْ بِهِ بَنُوٓ إِسْرَآئِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ » فقيل له : « آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ » (٢) .

وكما اختلف المفسرون فى كنه التسبيح اختلفوا فى مقدار المكث ، فقيل : أربعون يومًا ، وقيل : عشرون ، وقيل : سبعة ، وقيل : ثلاثة ، وقيل : لم يلبث إلّا قليلًا ثم أُخرج من بطنه عقب الوقت الذى التُقم فيه .

روى عطاء أنه حين ابتلع الحوت يونس أوحى الله ـ تعالى ـ إلى الحوت : « إنى جعلت بطنك له سجنًا ولم أجعله لك طعامًا » .

والمراد من الوحى إلى الحوت إلهامه ، وحبس جهازه الهضمى عن هضمه ، والله أعلم .

---

(١) من الآية ٨٧ من سورة الأنبياء .

(٢) الآية ٩٠ ، ٩١ من سورة يونس .

بيان للقراء الكرام

بسم الله والحمد لله ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد رسول الله ، وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد : فقد بدأنا – بتوفيق الله تعالى – تفسير النصف الثانى من القرآن الكريم ، من قوله تعالى : « أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ ... » من الآية ٧٩ من سورة الكهف – كما وعدنا القراء – ووصلنا إلى نهاية الآيتين : « فَلَوْلَآ أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ » من سورة الصافات الآيتين ١٤٣ ، ١٤٤ وبهما ينتهى الحزب الخامس والأربعون من القرآن العظيم ، وبذلك يكون قد تم تفسير ثلاثة أرباع القرآن الكريم .

وقد توفى فى هذه الفترة فضيلة الأُستاذ الشيخ طه الساكت ، والسيد الأُستاذ على عبد العظيم ، عضوا لجنة التفسير الوسيط – عليهما رحمة الله – وجزاهما أحسن الجزاء على صالح أعمالهما ، وقد حل محلهما فضيلة الأُستاذ الشيخ محمد مرسى عامر ، وفضيلة الأُستاذ الشيخ إبراهيم السويركى ، وأصبحت اللجنة مؤلفة كالآتى حسب ترتيب الحروف الهجائية :

١ – الشيخ إبراهيم السويركى .

٢ – الشيخ سيد مصطفى شريف .

٣ – الشيخ عبد المهيمن الفقى .

٤ – الشيخ محمد مرسى عامر .

٥ – الشيخ مصطفى محمد الحديدى الطير .

ويقوم فضيلة الشيخ مصطفى محمد الحديدى الطير بتنسيق أعمال هذه اللجنة ويتولى رياستها ، وقد عرف القراء – مما صدر من تفسيرها الأحزاب التى طبعت – أن اللجنة عند التزامها إخراج التفسير خاليا من التعقيد والمصطلحات الفنية ، إلا ما تدعو إليه شدة الضرورة ،

كما عرفوا خلوه من الإسرائيليات والآراء الهابطة ،كما أدركوا تقاربه بفضل التنسيق الدقيق والمراجعة اللذين يتولاهما رئيس اللجنة .

ونحن لا ندعى الكمال فيما قدمناه للقراء الكرام ،، كما لا ندعى خلوه من الخطأ ، فالعصمة لله ولرسوله ، وحسبنا أننا بذلنا فيه الوسع ، ورجونا فيه الأجر من رب العالمين ، وإننا لنشكر للقراء الكرام –فى مصر والبلاد العربية – إقبالهم على شراء ما يصدر منه من الطبعات .

وقد فرغت اللجنة من تأليف وتنسيق أكثرَ من ذلك ، وهو تحت الطبع .

والله تعالى ولى التوفيق ،

رئيس اللجنة

مصطفى محمد الحديدى الطير

عضو مجمع البحوث الإسلامية

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رئيس مجلس الادارة
رمزى السيد شعبان

رقم الإيداع بدار الكتب ١٩٨٦/١٦٧٩

الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

٥٧٤٩ — ١٩٨٦ — ٢٥٠٠٤

